كتاب الهلال

١٠ قروش

سلسلة
ثقافية
شهرية

شوقي وحافظ

طاهر الطناحي



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

العدد ١٩٤ محرم ١٣٨٧ مايو ١٩٦٧

No. 194 — Mai 1967

مركز الادارة

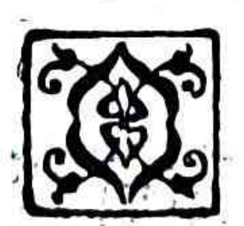
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى ج٠ع٠م – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــلاف بريشة

الفنان : جمال كامل



صور وظلال من حياة

شوقي وحافظ

●

بقلم

طاهر الطناحي

●

دار الهلال



تقـــديم

هذه صور وظلال او ذكريات ولمحات أدبية جـديدة من حياة شاعرين كبيرين من شعراء العربية ، عاشا معا فى عصر واحد ، وسنوات تكاد تكون واحدة . وتوفيا فى عام واحد . وقد كانا فى الصف الاول من بناة نهضتنا الادبيـــة التى ازدهرت فى أواخر القرن التاســع عشر والثلث الاول من القرن العشرين .. !

وهذه الظلال والصور ، فصول طريفة تضيف الى تاريخ هذين الشاعرين ألوانا من المعرفة ، وتلقى أضواء جديدة على حياتهما تفيد قراء العربية ، وتعين مؤرخ الأدب فى دراسة تراثهما الادبى النفيس ..!

فقد كان من حظى أن أعاصرهما ، وأجتمع بهما فترة من الزمان قبل أن يغادرا الدار الفانية الى الدار الباقية ، وكنت وقتئـذ فى مقتبل حياتى الادبيـــة والصحافية ، فساعدتنى الصحافة التى احترفتها على الاجتماع بهما والتردد عليهما ، فعرفت عنهما ما لا يعرفه الكثيرون ، وكشفت من أمرهما ما لم يكشفه الاكثرون ، فجمعته فى هذه الذكريات ودونته فى هذه الفصول

وكنت أود ان افرد لحياة كل من شوقى وحافظ كتابا خاصا ، كما فعلت فى « حياة مطران » . ولكن ظروفى لم تساعدنى على القيام بهذا المجهود.. ولعلى فاعل ذلك

فى مستقبل الايام . فقد ظهر عن كل منهما عدد قليل من المؤلفات التى بذل فيها مؤلفوها الفضلاء مجهودا حميدا ، ولكنى أرى أن هذين النابغين فى حاجة الى مزيد من الدراسة والبحث . وليس من الكثير على نبوغهما وجهادهما الادبى والقومى ان تتعدد عنهما المؤلفات ، أو تعنى بوضع كتاب شامل عن كل منهما مؤسسة ثقافية أو جماعة من الأدباء الدارسين .. !

ولست من القائلين ان ترجمة العلماء والادباء فى عصورهم قد يشوبها الفرض أو يتناولها التقصير أو سوء الرأى لسبب من الأسباب السياسية أو الطائفية . فانه اذا عهد فى ذلك الى مؤلفين صفت نفوسهم ، وخلصت أعمالهم لخدمة العلم والادب ، ظفرنا فى حياتنا العلمية والادبية بمؤلفات عن علمائنا وادبائنا تعد ذخيرة نفيسة للاجيال القادمة ..!!

ولعلى لا أكون مبالغا اذا قلت أن واجب الدولة ، بل واجب الدول العربية جمعاء أن تعنى بحياة حافظ وشوقى ، فانهما ليسا أديبى قطر عربى واحد من الاقطار العربية ، بل هما أديبا الأمة العربية كلها بما جمعت من شعوب وأقطار ، وقد ساهما فى نهضتها الشاملة ، وأحداثها السياسية والقومية .. وآثارهما الفكرية الناطقة ، لا تقل مكانة عن الآثار الفنية الصماء التى عنيت بها الدول العربية والتى تضمها دور الآثار فى بلاد العروبة من أقمشة وأخشاب وأحجار .. !

واذا كانت هذه الآثار تحتفظ بألوان من الفن الاسلامى فى مختلف عصوره التاريخية ، وكانت جديرة بهذا الحفظ ، فان آثار الفكر العربى والاسلامى جديرة بأن تدرس وتحفظ لتكون ثروة باقية للاجيال القادمة ـ تلك

الأجيال التى سوف تبحث وتدرس عصرنا الحاضر ، وما كان فيه من نهضة علمية وأدبية ضخمة ، ومن كان فيه من علماء وأدباء وأعلام ..!

ولا ريب أن المعاصرين لهؤلاء العلماء والادباء يعلمون عن حياتهم ما لا يعلمه غيرهم ممن يأتون بعدهم ، ولهذا كنت كمعاصر لشوقى وحافظ حريصا على أن أضع هذا الكتاب عنهما ، مسجلا فيه أهم الذكريات ، وأصدق الصور ، وأطرف اللمحات .. !

وقد حفظ السابقون من المؤلفين ثروة عظيمة لمعاصريهم العلماء والادباء بخطوطهم وجهودهم الفردية يوم لم تكن عندهم مطابع ولا امكانيات كهذه المطابع وتلك الامكانيات الضخمة التى عندنا من أدوات وايد عاملة ، وفن ومال ، وأهدوا الينا من ثمرات أفكارهم وألبابهم ثروات علمية وأدبية نفيسة ، فواجبنا أن نحافظ على ثروتنا الفكرية والادبية لنهديها لأبنائنا وأجيالنا القادمة .. !

ومن حسن الحظ أن قامت فى الجمهورية العربية المتحدة الآن حركة نشيطة للتأليف والترجمة والنشر ، تنبع من عدة مؤسسات ثقافية تسير بخطى واسعة . والى جانبها نهضات أخرى فى الاقطار العربية الشقيقة لخدمة الكتاب العربى ونشر الثقافة العربية . ولا شك أن هذه الحركة ستدفع النهضة العلمية والادبية فى بلاد العروبة الى الأمام ، وسوف تكشف عن جهود بارزة ، ومواهب جديدة كانت لولا هذه الحركة تظل مغمورة لاتجد من يشجعها على الانتاج ، ولا تجد من الحوافز ما يدفعها الى العمل لخدمة امتها العربية فى أهم الميادين : ميدان العلوم والآداب ، وميدان الثقافة العربية التى تربط الاقطار العربية برباط متين .. !!

طاهر الطناحى

الباب الأول



أحمد شوقي



شوقى فى سطور

• ولد أمير الشعراء **احمد** شوقى بالقاهرة سنة **١٨٦٨** م وكان والده أحمد بك حليم يعرف بالنجدهالى نسبة الى نجده احدى قرى الاناضول

• وكان والده يرد أصل أسرته الى الاكراد ، فالعرب الذين هاجرت منهم قبائل الى بلاد الكرد شمال العراق . وكان هذا الوالد يحسن الكتابة والحديث بالعربية كوالده الذى كان أمينا للجمارك المصرية

• رأى والد شوقى حلما عجيبا وهو حمل فى بطن أمه ففسره له الشيخ على الليثى شاعر الخديو اسماعيل بأنه سيولد له ولد يخرق ــ كما تقول العامة ــ خرقا فى الاسلام !

• زار شوقى الشيخ الليثى فى أواخر حياته فوجد بيده نسخة الاهرام التى نشرت فيها قصيدته فى وصف ليلة راقصة أولها :

حف كأسها الحبب　　　فهى فضية ذهب

فقال له : « هذا تأويل رؤياى » ، وقص عليه الحلم !

فقال شوقى « الحمد لله الذى جعل هذه القصيدة هي الخرق » !

• حصل شوقى على الابتدائية من مدرسة الشيخ صالح ، ثم الشهادة الثانوية من المدرسة الخديوية ..

• دخل مدرســة الحقوق فدرس فيها سنتين ثم انتقل الى قسم الترجمة فيها ، فحصل على شهادته بعد سنتين ..

• عين مترجما بديوان الخديو توفيق وبعد عام سافر فى بعثة الى فرنسا لدراسة الحقوق فعاد منها حاصلا على شهادتها

• فى ســــنة ١٨٩٤ ندب لتمثيـــل مصر فى مؤتمر المستشرقين ونظم قصيدته الشهيرة فى تاريخ مصر وما لها من عظمة فى الحضارة

• عين رئيسا للقلم الفرنجى بديوان الخديو عباس ، وبقى فيه حتى نشوب الحرب العظمى الاولى فرحل الى الاندلس ..

• عاد من الاندلس بعد انتهاء الحرب.. ثم عين عضوا بمجلس الشيوخ سنة ١٩٢٤

• توفى مســاء يوم الخميس ١٣ اكتوبر ١٩٣٢ عن أربع وستين عاما . وقد كتبوا على قبره كوصيته ، هذين البيتين من قصيدته (نهج البردة) :

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى
وكيف لا يتسامى بالرسول مسمى

ان جل ذنبى عن الغفران لى امل
فى الله يجعلنى فى خـــير معتصم



هكذا عرفت شوقى

كنت فى صباى أتعلم فى مدرسة ابتدائية ببلدتى « دمياط » تدعى مدرسة شمس الفتوح ، لصاحبها الشاعر المجيد « على العزبى » ..

وكان هذا الشاعر أحسن الله اليه ، ينظم الاناشيد والقصائد المدرسية والقومية فى مناسباتها ويجيد الالقاء نظما ونثرا كأحسن ما يلقى الشعراء والخطباء ، وكنت مع اثنين من زملائى الفرسان الاطفال الثلاثة الذين يختارون لالقاء بعض القصائد الوطنية ، والاناشيد القومية فى حضرة زائر كبير ، أو مفتش قدير من مفتشى وزارة المعارف العمومية ، أو لقيادة التلاميذ فى أناشيدهم المدرسية التى ينظمها « على العزبى » فى سهولة وقوة !

وكان هذا الناظر الشاعر ، نابغة دمياط فى الشعر ، وهو شاعرنا الاول ، بل « شاعر مصر الاول » فى نظرنا فى ذلك الحين !! .. وكان يشتد علينا فى حفظ القصائد والاناشيد . واجادة القائها فى هذه السن الصغيرة ، حتى كانت ضربات العصا على القدمين لا تقل عددا عن غلطات اللسان أو سهو الاذهان !

وكان للشاعر « على العزبى » صـــلة بشاعر النيل حافظ ابراهيم ، والشـاعر امام العبـد ، وطالما كان يراسلهما ويراسلانه ، ويداعبهما بالشعر ويداعبانه ، وهو فى رقة معانيه ، وفصاحة ألفاظه ، أقرب اليهما من سائر الشعراء ، ولكنه كان يميل فى بعض شعره الى أنواع البديع وأذكر من جناسه وتوريته فى غزله قوله فى حسناء :

جنت وجنيت الورد من وجناتهـا
فقالت من الجانى ؟ فقلت أنا الجانى

وكان القاء هذا الشاعر لا يقل قوة وجودة عن القاء حافظ ابراهيم ، بل كان صوته أرق وأجمل من صوت شاعر النيل ، فكان تأثيره فى شباب دمياط أقوى تأثير !

***

وفى ذلك الحين اشتهر كتاب بيننا نحن الناشئين ألفه شيخ من أدباء العصر باسم « جواهر الادب » يجمع من مختار الشعر والنثر طائفة لبعض المتقدمين والمحدثين ، ومنهم حافظ ابراهيم ، واحمد شوقى ، ومحمود سامى البارودى . ولكن شـعر حافظ كان أقرب الى نفسى لسهولته ، وموسيقاه الحزينة ، وعاطفته الباكية ، وليس أشد تأثيرا فى النفس من بواعث البكاء والأحزان لما فطر عليه الانسان من الرحمة ، وحب الحياة ، فالرحمة تكف الكثير من شره ، وتدفعه الى عمل الخير ، ومعاونة أخيه فى بأسائه .. وحب الحياة يثير فى نفسه الالم لمن يتعذب فى الحياة او فقدها من العاملين النافعين

حتى اذا طويت أيام الصبا ، ونزلت القاهرة للدراسة ، جعلت أبحث عن شعر حافظ فى الصحف والمجلات ، وكان شوقى ما يزال فى منفاه بالاندلس ، وقد أتاح له

غيابه عن مصر ، سعة فى الشهرة ، لا ينازعه فيها الا خليل مطران ، وعبد الحليم المصرى ، واسماعيل باشا صبرى . وكان « ديوان حافظ ابراهيم » فى طبعته الاولى ، أول ديوان اشتريته ، وقد حثنى على شرائه ما قرأته من شعره فى « مجلة الزهور » لصاحبها انطون الجميل ، حينما كنت أتردد على قاعة المطالعة فى دار الكتب المصرية ، وما رايته فى « المجلة المصرية » و « الجوائب المصرية » اللتين كانتا لشاعر القطرين خليل مطران فى أوائل هذا القرن

***

أما « أحمد شوقى » كنت لا اقرأ له كثيرا ، فقد كان شعره أسمى من ادراك فتى مثلى لم ينل النصيب الكافى من الثقافة الادبية ، ولم يضرب فى علم الشعر وفنه بما يؤهله للحكم على الشعراء ، أو اصابة الرأى فى شاعر عبقرى كشوقى .. ومن هنا خطر النقد حين ينبعث بين شباب ما يزالون فى مفتتح الطريق

ويشاء الله أن أقرأ سلسلة بحوث أدبية كتبها خليل مطران فى « المجلة المصرية » من الجزء الحادى عشر الصادر فى ٢١ مارس ١٩٠٦ م الى الجزء الثامن عشر الصادر فى يونيو ١٩٠٩ م بعنوان : « كيف ينظم شعراؤنا ؟ » . وكنت أعرف لمطران مكانته فى عالم الأدب وصحة رايه فى الشعر والشعراء ، وقد كتب فى هذا البحث كلمة عن « شوقى » جاء فيها :

« ينظم بين أصحابه ، فيكون معهم ، وليس معهم ، وينظم فى المركبة ، وفى السكة الحديدية ، وفى المجتمع الرسمى ، وحين يشاء وحيث يشاء ، ولا يعرف جليسه انه ينظم الا اذا سمع منه بادىء بدء غمغمة تشبه النغم

الصادر من غور بعيد ، ثم رأى ناظريه وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين ، ثم بصر به ، وقد رفع يده الى جبينه ، وأمرها عليه امرارا خفيفا هنيهة بعد هنيهة ، فاذا قوطع فى خلال النظم .. انتقل الى اى بحث يباحث فيه حاضر الذهن ، جميل البادرة كعادته فى الحديث ، ثم اذا استأنف ذلك المنظوم ، ولو بعد ايام طوال ، عاد اليه وكأنه لم ينقطع عنه .. »

ثم قال :

« يكلف أحيانا بمعارضة المتقدمين ، ولا يندر عليه ان يبزهم ، لا يجهد فكره ولا يكده فى معنى أو مبنى ، فأما المعنى فيجيئه على أبعد من مرامه ، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ، ومعارف جامعة الى أفانين الآداب فى لغات الافرنج والاعراب .. الى مشاركات علمية ، وتنبيهات فنية استفادها من مطالعته فى صفوف الكتب ، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته فى جولاته بين بلاد الشرق والغرب ، واما المبنى ، فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول ، ترى فيه من نسج البحترى ، ومن صياغة أبى تمام ، ومن وثبات المتنبى ، ومن مفاجآت الشريف ، ومن مسلسلات مهيار .. وفى المجموع تجد صفة عامة للنظم هى : انه نظم شوقى.. ذلك شعر العبقرية والتفوق » !

قرات هذا الوصف لخليل مطران فيما كتبه عن نوابغ شعراء العصر فى بحثه المسلسل ، وكنت وقتئذ من الشادين فى الادب ، المحبين لمجالس الادباء ، وكان من أساتذتى الشيخ محمد المهدى أستاذ الادب العربى وتاريخه فى الجامعة المصرية القديمة ، وله شهرة فى نقد الشعر ودراسته وحسن اختياره ، وكان حافظ قد

أشتهر بين الجماهير بجودة القائه الى ما له من شهرة بين الشباب بأشعاره الوطنية وقصائده الاجتماعية ، وعطفه على البؤساء والمساكين

***

وكان شعر شوقى أعلى من مستوى الجماهير ، وهو لا يجيد الالقاء ، فكان يكلف بعض أصدقائه ومعارفه بالقاء قصيدته .. والالقاء موهبة ، أو فن يحتاج الى خبرة ومران ، واندماج فيما يلقى على السامعين ، وبخاصة الشعر .. !

فلم يوفق شوقى يوما الى من يلقى شعره القاء يجتذب الآذان ، فكانت قصائده فى الحفل الذى يلقى فيه حافظ قصائده لا تصادف من السامعين تشجيعا كبيرا !

وذات مساء مررت على الشيخ محمد المهدى جالسا فى فناء الجامعة فاستأذنته فى الجلوس ، ثم أخذت أسأله عن كبار شعرائنا ، ومكانة كل منهم فى طبقات الشعراء الخالدين ، فأجابنى أن شوقى ، ومطران فى الطبقة الاولى ، ولكنه يقدم شوقى على جميع الشعراء المعاصرين ، وبعض المتقدمين .. ثم يأتى بعده خليل مطران ، وعبد المحسن الكاظمى .. !

وجعل يتحدث عن شعراء الطبقة الثانية ، ولم يذكر بينهم حافظ ابراهيم ، فقلت له فى دهشة : « وحافظ ابراهيم فى أى طبقة ؟.. هل نسيته ؟ » فقال ، وكأنما كان مستحضرا الجواب : « شعر حافظ ابراهيم اذا قيل لألفاظه : انفرى نفرت ، ولم يبق له منها شىء » ! !

وهو يعنى انه شاعر صياغة لفظية وايقاع موسيقى ، لا شاعر معان مبتكرة وخيال خصب ، وبيان خالد .. !

ولولا ان الشيخ المهدى فى ذلك الحين كان من أقطاب

الأدب الذين يقدرون كبار الأدباء ويحترمونهم ، لاتهمته بالميل مع الهوى ، لصداقة او مودة بينه وبين شوقى جعلته يضن فى تقدير حافظ هذا الضن .. !

غير انني ما زلت وقتئذ على تقديمي لحافظ ابراهيم ، وان كان ما سمعته من استاذى قد زعزع شيئا من ثقتى به ، واقبالى على شعره

وكنت وغيرى من شبـــاب ذلك الجيل نقرا لنقـــاد شوقى ، ونتأثر بآرائهم الجديدة ، والشباب دائما نزاع الى الجديد والتجديد .. ولم تكن ملكتنا الادبية وثقافتنا الفنية تساعدنا على تكوين رأى شخصى فى شاعر كبير كشوقى او تكشف لنا جوانب عبقريته .. !

وكان شوقى قد اشتهر بما يرسل من حكم كالمتنبى فى شعره ، وذات يوم قرأت نقدا فى مجلة اسبوعية لكاتب لم يعلن عن اسمه ، تناول أشهر بيت من حكمه ، وهو :

فأنمـــا الأمم الاخـــلاق ما بقيت
فانهمـــو ذهبت أخـــلاقهم ذهبوا

وادعى الـــكاتب انه مسروق من قول « ابن رعـــلاء العنانى » الذى قال :

فانما الأمم الأخـــلاق ما صلحت
فانهموا فسدت أخلاقهم فسدوا

ورأيت البيت الاول يبدو انه الاصيل وأن الثـــانى مزعوم مدسوس ، ولم أعرف أن هناك شاعرا يدعى « ابن رعلاء » !!

وذهبت الى شـــاعر العرب الشيخ عبـــد المحسن الكاظمى ، وكنت قد عرفته واتصلت به ، واخذت اقرا عليه ديوان شوقى بعد قراءتى عليه الجزء الاول والثانى من ديوان محمود سامى البارودى ، وسألته عن شاعر

يدعى « ابن رعلاء الغنائى » وقصصت عليه قصة البيتين ، فضحك ، وقال : « ان البيت الثانى كاذب ، وشاعره مكذوب ، والرعلاء مؤنث الأرعل ، والارعل هو الأحمق ، والرعلاء هى الحمقاء ، وابن الحمقاء لا يعظ الناس فى الاخلاق » !! ..

وحينما كنت أقرأ على الشيخ عبد المحسن الكاظمى فى داره ، ديوان محمود سامى البارودى كان يعجب بجزالة أسلوبه ونسجه المتين على مثال شعراء الصدر الأول ، وخاصة أشعاره الحماسية ، ويعده زعيم شعراء العصر ، وأميرهم .. ولكنه حينما أعاد نظره واستمع لقصائد شوقى وأنا أقرؤها عليه كان يطرب أكثر ما يطرب ، وكان ذهنه يثب أكثر ما يثب ، وكان شعوره يهزه هزا ، فتراه يتغنى مرددا معى بعض الأبيات ، أو أكثر الأبيات . ثم يقول : « لقد عرفت شوقى ، وقرأت له ثلاثين عاما ، وكنت أضعه بعد سامى البارودى ، ولكنك يابنى فى قراءتى معك الآن صححت رأيى ، وآمنت أن أحمد شوقى شاعر فحل خصب فياض ، لا يلحقه البارودى ، بل لا يلحقه الشعراء الكثيرون » !!

ولقد كنا نذهب مع شوقى فى طرب بمعانيه ، ونسمو فى اعجاب بخياله العجيب وكان يدهشنا بمعارضته لكبار الشعراء المتقدمين ، فيفيض ، ويتفوق على أكثرهم ، فقد يكون لبعضهم قصيدة من اربعين أو خمسين بيتا ، فيعارضها شوقى بقصيدة تزيد أبياتها على المائتين ، كما فى معارضته قصيدة أبى الطيب المتنبى فى مدح كافور الاخشيدى ، وهى ستة وأربعون بيتا ومطلعها :

اغالب فيك الشوق ، والشوق اغلب
واعجب من ذا الهجر ، والهجر اعجب

فقد عارضها احمد شوقى بقصيدة « **صدى الحرب** » فى الحرب العثمانية اليونانية ومطلعها :

بسيفك يعلو الحق ، والحق أغلب
وينصر دين الله أيان تضـــــــرب

وقد بلغت أبيات هذه القصيدة مائتين وستين بيتا ، واتى فيها من المعانى الجديدة ، والخيـال الخصب ؛ والقدرة فى معارضة المتنبى ، ومبارزته فى حلبة القريض بالبديع الفرد ، وبما تخلف فى بعضه المتنبى عن سبقه ومنافسته ، ومن أمثلة ذلك وصفه فى قصيدة أخرى للسفينة الانجليزية التى غرقت فى الحرب العالمية الاولى اذ يقول :

ضربتهـــا وهى سر فى الدجى
ليس دون الله تحت الليل سر
وجفت قلبـــا ، وخارت جؤجؤا
وفزت جنبـــا ، وناءت من اخر
طعنت ، فانبجست ، فاســـتصرخت
فأتاها حينهـــــا ، فهى خبـــر

***

على أن فى قصيدة شوقى البائية مع بلاغتها أبيـــاتا احتذى فيها المتنبى ، واظهر براعته فى محاكاته ..

وكان أن عرفت شوقى من ذلك الحين ، وسعيت الى مجالسه والاستفادة من شعره وما يحويه من بلاغة عربية أصيلة ، وخيال معجز ، وعلم غزير ، وحكم صـــادقة بليغة ، فاقت فى عددها وبلاغتها وسدادها ما أتى به حكماء الشعراء اذا استثنينا فى ذلك أبا العلاء المعرى !

وشجعتنى حرفة الصحافة التى ملت اليها عن صناعة التدريس فى مبـــدأ حياتى العمليـــة على أن أزور امير

الشعراء احمد شوقى ، وكانت مسرحيته « مجنـون ليلى » تمثـــل على مسرح الاوبرا وكنت اعلم انه يعنى بتأليف الروايات قبل ذلك بنحو ثلاثين عاما . ولكنه بعد أن بويع بأمارة الشعر سنة ١٩٢٧ م فى مؤتمر فخم جمع كبار الشعراء من جميع الاقطار العربية ، وبعد أن تقدم المسرح العربى ، وعنى الجمهور بفن التمثيل ، أراد شوقى أن يؤدى رسالته فى هذا الفن ، ويخدم نهضته خدمة جليلة ، فقدم للمسرح رواية «مصرع كليوباترا» ، و « رواية مجنون ليلى » ، ورواية « قمبيز » ، و « على بك الكبير » ، ورواية «عنترة» و « أميرة الأندلس » ، وكلها مسرحيات شعرية ، ما عدا الاخيرة

***

ولما كانت قصة « مجنون ليلى » قد تناولها الكثيرون من السابقين فقد رأيت أن أعرف كيف ألفها شوقى ، وكيف وضع أشعارها ، ثم كيف أخرجهـا فى اطارها المسرحى الحديث ، وأجابنى أمير الشعراء فقال :

« ألفت رواية مجنون ليلىوهى مأساة غرامية عذرية ، واذا قلت ألفت ، فانما أعنى اننى اعتمدت فيها على خلقى وابتكارى فى الكثير من المواقف . فقد تعلم أن ما جاء بالاغانى عن قصـة المجنـون مع ليلاه متناقض مضطرب ، فالمجنون فى بعض الروايات لم يخلق قط ، وفى روايات أخرى عشق ومات بالعشق ملتاعا مذهول الوعى . وكذلك ما جاء فى كتاب « مصارع العشاق » وكتاب « خزانة الادب » للبغدادى ، ولا أكتمك اننى وجدت صعوبات جمة فى تأليف هذه القصة ، واعتورتنى متاعب كثيرة فى نظمها ، ووضعها وضعا جديرا بالمسرح الحديث الذى يحتاج الى الحركة والاشخاص، والاحداث

المتعددة ، والمواقف المختلفة ... » وجعل شوقى يفيض بالحديث عن تأليفه لهذه الرواية ..

وقد كان شوقى يعنى برأى الجماهير فى شعره ورواياته قبل رأى النقاد ، لأن أكثرهم كما كان يقول : « ليسوا قضاة عادلين » . فاذا نشر قصيدة تفقد ما يقال عنها فى المجالس . وربما طوى اليوم كله فى تفقد أقوال الناس .. واذا مثلت له رواية قاس نجاحها باقبال الجمهور عليها .. !

وكان لا يرى رأى بعض المعاصرين فى الشعر الجديد ولا يسلم بأن هناك شعرا جديدا ، وشعرا قديما ، بل يرى أن هناك شعرا جيدا أو شعرا رديئا وأن الشعر الردىء يموت قبل موت أهله ، والجيد يبقى وان مات أهله ، على حد قول دعبل الخزاعى :

يموت ردىء الشعر من قبل أهله
وجيده يبقى وان مات قائله

وقد أوضح هذا المعنى ببلاغته وشرحه بفنه وعلمه فى احدى قصائده حيث يقول :

الله كرم بالبيان عصابة
فى العالمين عزيزة الميلاد
«هومير» أحدث من قرون بعده
شعرا ، وان لم تخل من آحاد
والشعر فى حيث النفوس تلذه
لا فى الجديد ، ولا القديم العادى



مع شوقي
في كرمة ابن هانئ

عشت مع شوقى فى روائع شعره وبدائع وحيه طويلا ، ثم اتصلت أسباب عملى بلقائه كثيرا قبل وفاته ، وكنا نحن الشباب ــ وقتئــــذ ــ نقبل على مجالسة الأدباء ومسامرة الشعراء فذهبت لأول مرة الى مجلسه بمنزله « كرمة ابن هانىء » على النيل ، الذى طالما شدا على ضفافه وأشاد بسؤدده وطرافه ، وتغنى بعظمة أسلافه !

وكان شوقى فى ذلك الحين معنيا بمسرحياته ، ما مثل منها وما لم يمثل ، فأردت أن أعرف سر عنايته بالشعر التمثيلى ، بعد ما أنتج من خالد القصيد الذى أمضى فيه شبابه ، واستهلك كهولته ، وقد أوفى على الشيخوخة يتعبها بمراد نفسه الكبيرة التى شاءت أن تخلد فى الشعر التمثيلى كما خلدت فى شعر القصيد .. !

وكنت أعلم انه ضنين بالكلام ، يجلس اليه الزائر ، فلا يكاد يتحدث ، وربما ظن انه معــه وهو ليس فى الحقيقة معه ، فأردت ان أثير جنانه واحرك بيانه ، فقلت له :

« كنت بالامس فى مجلس من مجالس الادب ــ ولم اقل له انه مجلس شاعر النيل محمد حافظ ابراهيم بالجيزة الذى اعتدت ان اتردد عليه فى ذلك الحين ــ

فدار حديث المجلس حول قصيدتك الاولى فى « توت عنخ آمون » التى مطلعها :

قفى يا أخت يوشع خبرينا
أحاديث القرون الغابرينا
وقصى من مصارعهم علينا
ومن دولاتهم ما تعلمينا

فقد انتقد بعض الحاضرين تمثيلك الشمس بالهرة ، وهى حيوان صغير ، فى قولك :

تعينين الموالد والمنايا
وتبنين الحياة وتهدمينا
فيالك هرة أكلت بنيها
وما ولدوا وتنتظر الجنينا

فاعتدل فى جلسته وبدا عليه الاهتمام ونظر الى قائلا : «وماذا بعد؟ » قلت : « ثم تناول حديث المجلس قصيدتك فى رثاء سعد زغلول التى مطلعها :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها
وانحنى الشرق عليها فبكاها

الى أن تقول :

كفنوها حرة علوية كست الموت جلالا وكساها

فقد رثيت سعدا الرجل الزعيم بضمير المؤنث .. » فسكت مليا ، ثم قال :

« وماذا قالوا بعد ذلك ؟ » فقلت له : « لقد تولى عنك بعض الحاضرين الرد على هذا النقد ، فقال عن الاولى : « ان الفرض من هذا التمثيل المعنى المجازى العام . وقد جاء فى القرآن الكريم دفاعا عن التمثيل بصغار الاشياء قوله تعالى : « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة ، فما فوقها » اى ما فوقها فى الصغر..!

ثم قال هذا البعض عن الثانية ان رثاء سعد بعد تشبيهه بالشمس بضمير المؤنث حملا على اللفظ لا ضير فيه ، فقد شبه الله نوره بالمشكاة الصغيرة المؤنثة ، فقال :

« الله نور السموات والارض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ... »

فلما سمع شوقى الرد على ما وجه اليه من نقد ، انبسطت أساريره ، وقال نعم ، هذا كله كلام صحيح . ولقد حدث شيء من ذلك لأبى تمام حين كان ينشد الخليفة المعتصم مدحه فى قصيدته التى مطلعها :

ما فى وقوفك ساعة فى باس
تقضى ذمام الأربع الأدراس

حتى اذا جاء الى قوله :

اقدام عمرو فى سماحة حاتم
فى حلم احنف فى ذكاء اياس

اعترضه « الكندى » الفيلسوف وكان حاضرا ، وقال له : « الخليفة فوق ما وصفت » فأجاب أبو تمام :

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

ثم قال شوقى ، ولله در البحترى اذ يقول :

والشعر لمح تكفى اشارته
وليس بالهذر طولت خطبه

الشعر التمثيلى :

وهنا وجدت مجالا للحديث مع شاعرنا الكبير ،

فسألته لماذا أقبل على الشعر التمثيلى يؤلف منه للرواية المسرحية ، فقال شوقى :

« قرعت ابواب الشعر فى شبابى ، وأنا لا اعلم من حقيقته ورسالته ما أعلمه اليوم ، ولم أجد فى مطلع حياتى من أغراضه الا ما كان مدحا فى مقام خطير أو رثاء لشخص كبير ، ثم اردت أن يكون لشعرى رسالة خيرا من هذه الرسالة ، فتناولت الوطنيات والاسلاميات والقوميات ، وساهمت بما وسعنى فى النهضة الوطنية أيام مصطفى كامل ، ثم فى نهضة سنة ١٩١٩ ، وما تفرع عن هاتين النهضتين من نهضات علمية واجتماعية . ثم اشتاقت نفسى أن يخلد فى اللغة العربية من هذا الفن مثل ما خلده شكسبير فى اللغة الانجليزية ، لأنى أومن ان الشعر العربى ـ على غير ما يتهمه المغرضون ـ يتسع للقصة المسرحية ، بل هو أسهل حفظا من النثر وأيسر أداء للممثل وأقوى تأثيرا فى الجمهور

« أما الممثل ، فيجد فى الاسلوب الشعرى انسجاما فى الذهن وتواردا على الخاطر ، وحضورا فى الذاكرة ، اكثر مما يجده فى العبارات النثرية

« وأما الجمهور ، فان تأثير الشعر فيه أسرع وأبلغ ، ذلك لموسيقاه وتأثيره العاطفى لأن الروايات المسرحية تتضمن مختلف العواطف والتجارب ، ومتعدد العبر والعظات التى تحث على التمسك بالمبادىء السامية كحب الوطن والحرية والدفاع عن الكرامة ، وتحض على اتباع الفضيلة والسمو بالنفس الانسانية الى مراتب الكمال، وصوغ هذه العظات والتجارب والعواطف بالشعر اروع فى السمع ، واعمق فى النفس !

« والشاعر يجد رسالته فى الرواية المسرحية اوسع

مدى ، وابقى حياة ، واعظم نفعا ، لان الرواياتالتمثيلية هى الدنيا مصغرة على المسرح »

شوقى وشكسبير :

هذا ما قاله « شوقى » وأود أن أشير هنا الى ما يفهم من تقليد شوقى لشكسبير بتأليفه لرواياته الشعرية ، وما يقال من أن التمثيل المسرحى فن ابتكره اليونان ، وأخذه عنهم الغربيون . فقد عثر علماء الآثار حديثا على مسرحية شعرية من عهد الملك مينا ـ أى منذ خمسة آلاف سنة ـ كما عثروا على مسرحيات نثرية فى عهود الفراعنة لا تختلف كثيرا عما نشهده اليوم

وقد أثار هذا الكشف دهشة علماء الآثار ، اذ كان المعروف أن مهد « الدراما » بنوعيها الجدى والهزلى هو الفكر اليونانى والحضارة اليونانية ، ولكن هـذا الكشف أثبت أن « الدراما » المصرية ظهـرت فى عالم الوجود قبل الدراما اليونانية بنحو ثلاثة آلاف سنة ، وأن مهد هذا الفن هو الفكر المصرى والحضارة المصرية وانه من المرجح أن اليونان قد أخذوه عن المصريين حينما عاشوا فى مصر ردحا من الزمان مع ما أخذوا من مختلف الفنون ..

واذا رجعنا الى التاريخ البعيد وقلنا كما يقول العلماء ان الفراعنة ساميون وفدوا علىالنيل من جنوب الجزيرة العربية ، استطعنا أن نقول ان فن المسرح فى أصله عربى قديم ، وانه من الواجب ان تبرز هذه الحقيقة ، وأن نفخر بها نحن العرب !

ولست استطيع ان اروى هنا كل ما قاله شوقى فى

المثل الوطنية والامثلة الخلقية فى مسرحياته وأشعاره ، ولذلك يجب من الوفاء لذكراه أن نعترف انه من بناة نهضتنا القومية الكبرى ، لا فى مصر وحدها ، بل فى الشرق العربى

فلقد شب شوقى مع الثورة العرابية ومع يقظة الشرق العربى ، وكانت سنه وقتئذ أربعة عشر عاما ، ولما صار شابا يافعا التقت عاطفته الشعرية بعاطفة مصطفى كامل الخطابية ضد المحتلين ، وكانا صديقين فى سن متقاربة ، وكان مصطفى يعتز بقصائد شوقى ، ويضعها فى المكان الاول من جريدته « اللواء » ويقول عن شوقى : « ذلك الفدير الصافى فى لفائف الغاب ، يسقى الارض ، ولا يبصره الناظرون » .. ولهذا قال شوقى فى رثائه :

قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
وتجل فوق النيران مكانى

ويحكى لنا شوقى ذات يوم انه كان مع صديقه مصطفى ، وهو يعد خطبته المشهورة التى القاها فى كازينو زيزينيا بالاسكندرية ، وقد وصل فيها مصطفى الى قوله : « لا حياة مع اليأس » فقال شوقى : « ولا يأس مع الحياة » فطرب مصطفى من هذه العبارة الخطابية واضافها الى خطبته . ولقد طالما غذى شوقى نهضة مصطفى كامل بقصائده الرائعة . وقال فى ذكراه سنة ١٩٢٤ مخاطبا روحه الباقية :

اتذكر قبل هذا الجيل جيلا
سهرنا عن معلمهم وناما

لواؤك كان يسقيهم بجام
وكان الشعر بين يدى جاما

خطاب مجهول :

ولقد حدثت ذات يوم جفوة عابرة بين شوقى ومحمد فريد رئيس الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل ، فهاجمت جريدة اللواء الوطنية شوقى هجوما شديدا ، فبعث الى فريد بخطاب عثرنا عليه نسجله هنا لمكانته التاريخية قال فيه شوقى :

« عزيزى محمد بك فريد

« اراك ايها الرئيس الكريم قد خفى عليك مكان وطنيتى ، فهل تأذن لى أن أدلك عليه ، ولا فخر ، فقد احرجتنى احراجا ، وأخرجتنى من خلقى اخراجا ، فاذا زهيت واستكبرت مرة فى العمر ، فأنت كريم ، والكريم يغفر ..

« وطنيتى ايها الرئيس هى فى فؤاد ولدك الصغير المحروس ، فاذا انقلب اليك من المدرسة ، فادعه يتل عليك من آياتها ما يخفق له فؤادك ، وتهتز له جوانحك اهتزازا لان فريقا يهزون الرضيع فى مهده ، وفريقا آخر يوحون الوطنية الى الناشىء فى درسه ، أولئك هم المفلحون » ..

« وطنيتى تطيف بكل حجر القى اساسا للعلم فى هذا القطر ، من الجامعة الى النادى الى أمثالهما من مصادر الحياة الحقيقية للامم والشعوب . يعرف ذلك ويذكره المؤسسون ..

« وطنيتى هتف بها البدو وتغنى بها الحضر ، وجاوزت الاعاجم من ترك وفرس ، فهى معلقة على جدران قصورهم ودورهم ، يقرؤها هنالك القارئون

« وطنيتى فى الاهرام .. كان قلمى فى قمته ، وكانت

همى فى خدمته ، وكان صاحبه بشارة تقلا يحبنى كما يحب واحده جبرائيل تقلا ، وليس وراء الحب غاية فى الاحرام

« وطنيتى فى المؤيد مدرسة الوطنيين الاولى

« وطنيتى فى اللواء الذى كان صاحبه الوفى الكريم يتلقى الكلمة منى كما يتلقى سنة تقوم لجريدته عرفانا بالفضل .. والفضل يتذكره الخيرون

« وطنيتى مخبأة فى مقبرة سلفك العظيم مصطفى كامل ، فطف بها ، وناجه ، يخرج اليك من جانب القبر صدى الصدق ، صدى الحق ، صدى الحياة التى لم يتغلب عليها الموت ، ولا تمكن منها البلى ، صدى الشباب الذى نصفه فى الجنة ونصفه لا يزال فى هذه الدنيا ، يملؤها ويسرى فيها - هذا الصدى يقول : شوقى هو همزة اللواء طالما تباهى به وافتخر ، واعتز به وانتصر ، وهو أصدق من نظم فيه ونثر ، فى وقت عز فيه الصادقون ..

« وطنيتى فى الشوقيات ، قليلها الذى ظهر ، وكثيرها المستتر ، وفى عذراء الهند و « دل » و « تيمان » ولادياس وينتاؤور ، ولو اطلعت على واحد من هذه الآثار التى تقتنيها ربات الجمال ويفهمها الرجال والاطفال ، لعلمت - كما علم كثير من العقلاء قبلك - اننى كما وصفنى المرحوم مصطفى كامل ذلك الغدير الصافى فى لفائف الغاب يسقى الارض ولا يبصره الناظرون »

هذا هو خطاب شوقى المملوء بالتذكرة والعتاب الى محمد فريد ، ولكن هذه الجفوة لم تدم طويلا بين الصديقين شوقى وفريد ، فانهما ما لبثا أن عادا الى ما كان بينهما من مودة ومحبة وتقدير ، حتى اذا توفى

فريد سنة ١٩١٩ بكاه شوقى بمرثية عصماء مطلعها :

كل حى على المنيـــة غادى
تتوالى الركاب والموت حاوى
ذهب الأولون قرنا فقـــرنا
لم يدم حاضر ولم يبق بادى

وفيها يقول عن فريد :

وسدوه التراب نضـو سفار
فى سبيل الحقوق نضو سهاد
واركزوه الى القيامة رمحـا
كان للحشد والندى والطراد

واقروه فى الصفائح عضـبا
لم يدن للقرار فى الاغمـــاد

الى ان يقول من البديع الفرد :

منتهى ما به البلاد تعـــزى
رجل مات فى سبيل البـلاد

لقب أمير الشعراء :

وكما حدثت جفوة بين شوقى ومحمد فريد بسبب الخديو السابق ، وقعت ذات مرة جفوة عابرة أخرى بينه وبين الشيخ على يوسف لهذا السبب . وقد اراد الشيخ على يوسف ان يكيد لشوقى كيدا صحافيا ، وكان شوقى فى ذلك الحين يلقب بشاعر الامير ، ويدل بهذا اللقب ، فما كان من الشيخ على يوسف الا ان كتب مقالا ادبيا فى جريدة المؤيد لقب فيه حافظ ابراهيم بشاعر النيل . وطبيعى ان النيل يشمل مصر والسودان، ويشمل الامير وغير الامير من اهالى الوادى ، فكأن شوقى

قد أصبح من رعية حافظ ابراهيم بعد هـذا اللقب الجديد . فغضب شوقى لذلك ، وغضب أصدقاؤه من الصحافيين السوريين والمصريين .. واذا باللواء وجريدة الاهرام والجريدة تصدر فى اليوم التالى ملقبة شـوقى بأمير الشعراء ، واذا به ينتهز مناسبة قصيدته فى الحرب العثمانية اليونانية فى ذلك الحين ويرد قائلا مخاطبـا الخليفة :

وانى لطير النيل لا طير غيره
وما النيل الا من رياضك يحسب

اذا قلت قولا فالقـوافى حواضر
وبغـداد بغـداد ويثرب يثرب

وقد اشتهر شوقى منذلك الوقت بلقب أمير الشعراء ، وقبل أن يبايع بالامارة بنحو عشرين عاما . أقول ولو عاش شوقى الى الان بيننا لتنازل عن هذا اللقب ، لانه أصبح لا يتفق وعهدنا الشعبى الديموقراطى الجديد ـ ولا ريب أن شوقى يكفيه مجدا أن يدعى باسمه مجردا ؛ ولقد أحسن محمود سامى البارودى اذ قال :

حبوتك القاب العلى فادعنى باسمى
فما تخفيض الالقاب حرا ولا تسمى

شوقى فى رواياته



فى الاعوام الثلاثة الاخيرة من حياة المرحوم أمير الشعراء ، شغل الناس بمسرحياته التى مثلت فى ذلك الحين على مسرح الاوبرا ومسرح حديقة الازبكية . وقد بدأت بمسرحية كليوباترا ، ثم بمجنون ليلى ، وتلتهما مسرحياته الاخرى . وقد كان ظهور هذه المسرحيات حدثا هاما فى عالم الادب وعالم الشعر وعالم المسرح الحديث . فلم يسبق لشاعر من شعراء العربية قبل شوقى أن ألف تمثيليات شعرية على نحو ما كان يفعل شكسبير فى اللغة الانجليزية .. !

حرفة المديح :

وكان قراء العربية فى سائر الاقطار يعرفون شوقى شاعرا نابغا من الشعراء الخالدين فى تاريخ الادب العربى كبشار بن برد وأبى تمام وابى الطيب المتنبى وابن زيدون، ثم عرفوه بانتاجه الشعرى الرفيع وقريحته الخصبة وموهبته الفياضة أميرا للشعراء ، وقد كان حسبه فى خلود ذكره ما أبدع من شعر رائع وما نظم من قصائد بليغة فى المدح والرثاء وفى الوطنيات والاسلاميات وفى

الحياة والاجتماع ، ولكنهم وجدوه ينتقل فى بلاغته الى مكان من الخلود أعظم وأروع . فقد كان شعراء العروبة منذ القدم يقصرون شعرهم على المديح والرثاء والوصف والنسيب وما اليها من أبواب الشعر . كانت هذه هى الطريقة التى ساروا عليها فى مختلف العصور أو على حد قول شوقى فى الطبقة الاولى لديوان الشوقيات :

« ... اتخذوه حرفة وتناقلوه تجارة . اذا شاء الملوك ربحت ، واذا شاءوا خسرت .. انه من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا شاعر كالمتنبى مثلا حياته العالية التى بلغ فيها الى أقصى الشباب ، ثم يموت عن نحو مائتى صفحة من الشعر تسعة أعشارها لمدوحيه » .. !

وربما كان للمتنبى عذر من حياته وعصره وقصر عمره . ولكن ما عذر شوقى الذى ينقد هذا النقد ويمقت اكثار الشعراء من المدح .. وقد أكثر هو من قصائد المدح ؟! .. لقد تولى هو الرد على ذلك . فقال : « انى قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أجد أمامى غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها الا للمديح وقصائد للاحياء يحذون فيها حذو القدماء والقوم فى مصر لا يعرفون من الشعر الا ما كان مدحا فى مقام عال ولا يرون غير شاعر الخديو صاحب المقام الاسمى فى البلاد فما زلت أتمنى هذه المنزلة واسمو اليها على درج الاخلاص فى حب صناعتى واتقانها بقدر الامكان ، وصونها عن الابتذال حتى وفقت اليها »

***

كان اذن لقب شاعر الخديو أو شاعر الامير هو الأمنية التى تهفو اليها نفس شوقى الشاعر الشاب حتى اذا

ظفر بها اشتاقت نفسه الى ما كان يميل اليه منذ الصبا من تأليف الروايات الادبية فوضع قصة سماها « عذراء الهند » نشرت مسلسلة وقتئذ فى جريدة الاهرام . كما وضع فى ذلك الحين أربع قصص أخرى هى « دل » و « تيمان » و « لادياس » و « بنتاءور » . وكان قد نظم وهو يطلب العلم فى فرنسا بعض أساطير لافونتين . وترجم شعرا قصيدة « البحيرة » للشاعر الفرنسى لامارتين ..

وقد اتجه بعد ذلك الى الشعر التمثيلى فوضع رواية « على بك الكبير » قبل ظهور مسرحية مصرع «كليوباترا» بعدة سنوات ولكن الاتجاه العام للنهضة الادبية وقتئذ لم يساعده على الانقطاع لهذا الضرب من الشعر التمثيلى فطواها دون أن ينقحها

ولما تقدم المسرح المصرى وأقبل الجمهور عليه وتذوق الفن التمثيلى الصحيح عاد شوقى الى الرسالة التى يهدف اليها من خدمة الشعر للمسرح وللحياة القومية ، فألف رواية كليوباترا . ثم رواية مجنون ليلى ، وقمبيز ، وعنترة ، والست هدى ، ورواية البخيلة ، وأميرة الاندلس ، ثم عاد الى رواية على بك الكبير فأصلح الكثير من فصولها واتمها ، واخذ يحقق رأيه فى الشعر العربى من انه يتسع للرواية كما اتسع لها الشعر الافرنجى وأراد ان يخلد فى اللغة العربية ما خلده شكسبير فى اللغة الانجليزية ..

وقد حدثنى فى ذلك ، حين زرته ذات مرة ، بعد ظهور رواية كليوباترا ومجنون ليلى فقال : « ... وجدت بعد انطواء هذه الحقبة الطويلة ان الأوان قد آن للبدء فى التأليف الروائى لأنى أومن ان الشعر العربى على غير

ما يتهمه المفرضون يتسع للمسرح ولان المسرح المصرى قد ارتقى رقيا يبعث على الاعجاب ويبشر بالمستقبل المجيد ..

« ورأيت جمهور النظارة قد وصلوا الى درجة شجعتنى على التأليف . ولا اخفى عليك ان الاقبال العظيم الذى لقيته كل من كليوباترا ، ومجنون ليلى قد أوقد فى نفسى جذوة النشاط على الرغم من ضعف صحتى ، وزادنى مثابرة على مواصلة التأليف »

اختياره للشعر :

وقد ألف شوقى رواياته شعرا ما عدا واحدة هى اميرة الاندلس فقد الفها نثرا

والسبب فى ذلك أنه كان يريد أن يحقق رسالة الشعر العربى فى هذا الفن ، كما حققها شكسبير فى الشعر الانجليزى ، ولأن الشعر اسهل حفظا واكثر تداولا واقرب الى حضور الذاكرة من النثر سواء فى ذلك الممثل والجمهور ، فان الممثل يجد فى الابيات الشعرية سهولة فى الحفظ لا يجدها فى النثر ويحس فى انسجامها واتزانها تواردا على الذهن وحضورا فى الخاطر أكثر مما يجده فى العبارات النثرية

أما بالنسبة للجمهور ، فان الرواية تتضمن مختلف التجارب والعظات التى يقصد بها الحث على الفضيلة والسمو بالنفس الانسانية الى مدارج الرقى والكمال

وصوغ هذه العبر والتجارب بالاسلوب الشعرى أروع فى السمع وابلغ فى النفس وابقى فى الذاكرة

اختياره للتاريخ :

وهنا يعرض سؤال : لماذا اختار شوقى لتأليفه الروائى ما اختاره من موضوعات تاريخية . ولماذا بدأ برواية كليوباترا ؟ ..

ان قارىء شعر أمير الشعراء فى رواياته الثلاث ثم فى أراجيزه وهو الديوان الخامس (دول العرب وعظماء الاسلام) يرى انه قد اخذ بنصيب كبير من التاريخ لا يشاركه فيه شاعر من شعراء العربية فقد تمثل بأحداث التاريخ واستشهد بوقائع وابطال واشخاص فى التاريخ القديم والحديث وفى تاريخ مصر وتاريخ العرب والاسلام وتاريخ أوربا تدل على سعة اطلاعه وغزارة علمه ووعيه لصفحات التاريخ ، وقوة ذاكرته ، وبراعة نقده للرجال والاحداث مما جعل لشعره قيمة علمية وتاريخية جليلة فضلا عما وصل اليه من العبقرية الفنية الشامخة فكان طبيعيا أن يتجه فى رواياته اذا استثنينا « الست هدى » و « البخيلة » الى أحداث التاريخ وروائعه الشائقة وابطاله الخالدين !

هذا الى ما فى ذلك من خدمة للتاريخ بتمحيص هذه الاحداث وعرض لطائفة من هؤلاء الابطال بطريقة سليمة غير مشوهة ما دام الاديب الراوى من المطلعين النوابغ كشوقى يستطيع أن يحقق ويمحص الصحيح من الزائف والصادق من الكاذب ، ويخرج لنا صورة من الحقيقة الناصعة فى اطار من الخيال الرائع

وذات مساء كنت ازور شوقى ، وكانت رواية « مصرع كليوباترا » تمثل على مسرح الاوبرا ، وكان يحضر تمثيلها كل ليلة ، فدعانى لشهود هذه المسرحية فى صحبته ، فذهبت معه وجلست فى شرفته الخاصة ، ودار بخلدى

وانا جالس مبلغ عناية شوقى بالتاريخ فى رواياته ، ولم يكن ذلك عليه جديدا ، فقد عنى من قبل بالتاريخ فى أكثر قصائده ولكنى سألته : لماذا عنى بكليوباترا بالذات، وقدمها على غيرها الى المسرح ، فكانت أولى تمثيلياته ، فقال أحسن الله اليه :

« كنت قبل تأليف هذه الرواية اشهد رواية فى احدى دور السينما عن ملكة فرنسية صورها المؤلف السينمائى فى صورة امرأة داعر ، لا تتورع عن الاستجابة لشهواتها فأسيت لهذه الملكة وقلت فى نفسى ، وماذا فى عرض الفضائح على الناس من جدوى ؟ ثم كم فى التاريخ من اغلاط واكاذيب ، وقد يكون الشأن فى ذلك لنزعة المؤلف وهواه السياسى ، أو ميوله الدينية او القومية ، او رغبته فى الاتيان بما يثير الجماهير !!

« وهنا برزت كليوباترا على صفحة ذهنى ، فقلت لا يبعد أن تكون هذه الملكة قد جنى عليها المؤرخون من ذوى الاغراض وبالغوا فى التجنى عليها ، وحفزنى ذلك الى وضع هذه الرواية عنها ، لأنه لا يعقل أن تكون كليوباترا بهذه الحال الزرية التى نراها فى كتب المؤرخين

« وقد وجدت ان منشأ تشويه سمعتها اتى مما كتبه المؤرخ « بلوتارك » ، وهو من صنائع حكام الرومان ، فأمعن فى الحط من شأنها مسوقا بأغراضه ، وعن « بلوتارك » أخذ غيره من المؤرخين الذين حملوا عليها ، فأردت ان اكشف اللثام عما طمسته الاغراض ، وان أبرز ما فى حياتها العظيمة من عبر ومثل عليا ، كالتضحية بالذات فى سبيل العزة والكرامة ، وقدمتها كانسانة فاتنة لها ما للفاتنات من غى وفتنة ، وكملكة عظيمة لأمة عظيمة، لها ما للعظماء من طموح وكبرياء وجلال .. يأبى عليها

أن تسلم تاج مصر لأعدائها وتفضل الموت على حياة الذل والهوان ، وتقول للأفعى :

هلمى الآن منقذتى هلمى
وأهلا بالخلاص وقد سعى لى

سطت روما على ملكى ولصت
جواهر أسرتى وحلى آلى

فرمت الموت لم اجبن ولكن
لعل جلاله يحمى جلالى

حياة الذل تدفع بالمنايا
تعالى حية الوادى تعالى

***

ولم ابالغ كما بالغ بعض المؤرخين ، فأجعلها بريئة من كل عيب ، وانسب لها ما نسبه غيرى من فضائل روحية ودينية ، فقد كتب عنها بعضهم واصفا اياها أنها كانت متعمقة فى الديانة المصرية القديمة أكثر من آبائها ، ومتضلعة فى العلم والفلسفة ، وأنها كانت حكيمة وفيلسوفة »

***

هذا من أهم ما عنى به شوقى فى مسرحياته وهو البعد عن المبالغة والكشف عن الحقيقة ، وابراز المثل العليا ، وفى مقدمتها مثال التضحية فى سبيل الوطن ، وفى سبيل الحرية والكرامة والتمسك بالاخلاق الفاضلة. وأذكر هنا مثالا لسمو الاخلاق والوطنية الصادقة واحترام النفس ، أبرزه فى روايته « على بك الكبير » حين خرج عليه رجاله ، فعرضت عليه دولة من الدول

الاجنبية أن تساعده ضد قومه فى استرداد سلطانه ، فرفض بشمم واباء قائلا :

رباه ماذا يقول المسلمون غدا
انخنت قومى وأعمامى وأخوالى
يقال فى مشرق الدنيا ومغربها
فعلت فعلة نذل وابن أنذال

ثم يجيب القائد الاجنبى الذى يغريه بالاستعانة به حتى لا يضيع ملكه الذى بناه بهمته وأعماله :

أجل سموت لملك النيل أطلبه
بهمتى وباقدامى وأفعالى
لا أستعين على الاهل الغريب ولا
ارمى الذئاب على غابى وأشبالى
بعدا وسحقا لعلياء الامور اذا
لم التمسها بخلق فاضل عال

رواية المجنون :

وقد اتبع أحمد شوقى مسرحية كليوباترا بمسرحية مجنون ليلى وهى رواية غرامية فيها كما فى الرواية السابقة العناصر الفنية والمسرحية . ولكن هل كان عمل شوقى فى هذه الرواية عمل الناظم للحوادث المروية ؟ كلا فقد احتمل شوقى فى هذه الرواية أكثر مما احتمل فى وضع كليوباترا . ونحن نروى هنا من حديثه الشخصى لنا ما قاله عن هذه الرواية .. وقد سألته عن المصادر التى اعتمد عليها فى رواية المجنون ، فقال (١) : « اعتمدت فى هذه الرواية على خلقى وابتكارى ، فقد

(١) كل ماذكرناه من كلام لامير الشعراء لم يكتبه فيما طبع من رواياته ، فقد أتيح للكاتب أن يأخذ منه هذه الاحاديث قبل وفاته

تعلم ان ما جاء بالاغانى عن قصة مجنون ليلى متناقض مضطرب تخرج منه على لا شىء . فالمجنون فى بعض الروايات لم يخلق قط ، وفى روايات أخرى عشق ومات بالعشق ملتاعا فاقد الوعى ..

« وكذلك ما جاء فى كتاب « خزانة الادب » للبندارى وكتاب « مصارع العشاق » لاحمد بن حجلة المغربى و « تزيين الاسواق » لداود الانطاكى وغيرها من كتب الادب . وقد اختلفوا فى شخصه وفى اسمه وحياته وموته . واخترت أنا اسما من بين الاسماء الكثيرة التى اختلف فيها الرواة وهو « قيس بن الملوح » فدرست العصر الذى عاش فيه هذا العاشق المجنون وهو عصر معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية ومنشئها ، وأنا اسمى هذا العصر من الناحية الاجتماعية « الجاهلية المهذبة » لان التقاليد الجاهلية فى ذلك العصر كانت على ما هى عليه فى الكثير من الاحيان ، ومن أدلتى على ذلك أن مروان بن الحكم والى الحجاز فى ذلك العهد أهدر دم « قيس بن ذريح » عاشق « لبنى » نزولا على تقاليد العرب فى الجاهلية ، مع ان الاسلام لا يجيز ذلك ؛ ولا يقول به . ولقد انقذ الموقف ما فعله الحسين بن على رضى الله عنه ، فقد سار حافى القدمين الى والد « لبنى » يخطبها لقيس بن ذريح فلم يسع والدها الا أن يضحى بالتقاليد الجاهلية وزوج لبنى من قيس . وكانت هذه التقاليد تقضى بأن لا يتزوج الشاب الفتاة التى شهر بها فى شعره ..

« ولا اكتمك اننى اعتورتنى صعوبات جمة فى وضع قصة المجنون اولا ثم حبكها للمسرح ثانيا . وعانيت فيها اكثر مما عانيته فى رواية كليوباترا . فقد كان أمامى فى تاريخ كليوباترا معركتان عظيمتان: معركة اكتيوم البحرية،

ومعركة أسوار الاسكندرية البحرية ، وشهدت اخلاطا من الناس : يونان ورومان ومصريين ووجدت مواقف انتفعت بها فى بناء الرواية المسرحية واشاعة الحركة فيهـا . والحركة هى روح المسرح وقوام التمثيـل ، وبالجملة تزاحمت أمامى الاحداث والمواقف والاشخاص والانقلابات التاريخية

« أما فى رواية المجنون فقد وجدتنى على نقيض ذلك فكل ما هنالك : الصحراء والبدو والخيـام والهوى العذرى يختبل صاحبه ويموت به من الحرمان الذى فرضته العادات والتقاليد والجأته الى القعود عن المغامرة فى مواقفه الغرامية فأودع أشعاره لواعجه وآلامه ..

« هذا ما فى حادث المجنون ، لذلك كان واجبى ازاء فن المسرح ان أقوم بمجهود شاق انفخ به الحيـاة فى الرواية ، فابتدعت مواقف اجتماعية تسمح بها العادات التى عاشت فى كنف الاسلام » ـ هذا ما حدثنى به شوقى ..

ولما كان الحب عنصرا هاما من عناصر المسرح ، فقد اختار شوقى رواياته من النوع الذى للحب فيه مواقف رائعة فروايات كليوباترا والمجنون وعنترة وقمبيز وعلى بك الكبير كان فيها للهوى والهيام حديثـه واحداثه ومفاجآته ولواعجه البارزة

أميرة الاندلس :

وقد اراد ان يسهم فى الاسلوب النثرى بتاليف رواية « أميرة الاندلس » بثينة بنت الملك المعتمد بن عباد ملك اشبيلية . وهى بطلة تلك المأساة التاريخية التى أطاحت

بملك ابن عباد وشتتت شمل عزه وأسلمته الى أيدى المغاربة الذين انقلبوا عليه بعد ان كانوا حلفاءه وأشهروا عليه حربا إغتصبوا فيها ملكه واسروه بقيادة يوسف بن كاشفين وقد ألف شوقى هذه الرواية النثرية وهو منفى فى تلك البلاد أثناء الحرب العالمية الاولى فكانت وحيا من تاريخ الاندلس وما خلفه المسلمون فيهـا من ذكريات ومعالم ..

الست هدى والبخيلة :

وقد ظهرت هذه الروايات على المسرح وفى عالم الطباعة والمطبوعات ، أما الروايتان المصريتان الموضوعتان فقد أتم امير الشعراء وضعهما نظما ، ولكن لم يقدر لهما الظهور حتي الان . وهاتان الروايتان ـ الست هدى والبخيلة ـ حدثت وقائعهما بالقاهرة . وقد قال لنا انه شهد هذه الوقائع بنفسه قبل وفاته بنحو ثلاثين عاما فألف مما رآه هاتين الروايتين شعرا مسرحيا على نسق ما ألفه من رواياته الشعرية

ومما تنبغى الاشارة اليه انه على الرغم من أن شوقى لم تعرف عنه الدعابة والظروف ، على نحـو ما كان عليه حافظ ابراهيم ، ولم يؤلف روايات كوميدية على نحو ما ألف موليـير وفولتير فانه خلـق فى بعض رواياته شخصيات مضحكة ، ففى رواية مصرع كليوباترا أتحفنا بشخصية « انشو » مضحك الملكة الخفيف الروح الذى ينطق عن دعابة ظاهرها فكه وباطنهـا فيه السـخرية اللاذعة . وكذلك رواية المجنون فقد اشاع فيها روح الفكاهة والسـخرية ـ سخرية الشـياطين من آدم وبنيه .. !

ثمن المجد :

لقد خدم شوقى بشــعره الادب والتــاريخ والوطن والعروبة والاسلام ، وأهدى الى اللغــة العربية والى المسرح العربى روايات كان فيها المبتكر الاول لهذا النوع فى الشرق وبرهن بمجهوده الفائق على أن اللغة العربية كما عرفت فى مختلف العصور لغة العلم والادب والفلسفة والفن الرفيع ولغة التمدن ولغة الحضارة على مدى الاجيال ..

ولقد تقاضاه هذا المجهود الضخم ثمنا غاليـــا من أعصابه وقلبه ونفسه وذهنه فضعف جسمه وأصيب قبيل وفاته بعلة فى القلب وآلام فى المعدة لازمته حتى الرمق الاخير . فذهب ضحية ما شاد للادب العربى واللغة العربية من مسرح رفيع العماد عظيم البنيــان خالد مدى الازمان



المعارضة والاحتذاء في شعر شوقي

أتيح لى منذ حقبة من الزمان أن أتصفح كتابا ألفه أبو سعيد محمد بن أحمد العبيدى وسماه « الابانة عن سرقات المتنبى » . وكنت وقتئذ متشبعا بالاعجاب بالقدماء واكبارهم وتقديسهم ، وأري أن كل من أوغل فى القدم من الشعراء كان أجود شعرا وأعلى كعبا فى اللغة والادب . وقد تأثرت بفكرة : « ما غادر الاول للآخر شيئا » أو كما قال عنترة فى معلقته :

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل رفعت الدار بعد توهم؟

فلما وقع بيدى هذا الكتاب قلت ان ذلك ليس بالجديد ، فالمتنبى شاعر القرن الرابع الهجرى وقد سبقه عدد غير قليل من الشعراء الاسلاميين والمخضرمين، بل سبقه أكثر من مائة وخمسين شاعرا هم فحول شعراء الجاهلية الذين كانت القبائل تعتز بهم وتفاخر بنبوغهم ، فليس بعيدا أن يكون المتنبى قد أخذ من بعض هؤلاء الشعراء شيئا ، خصوصا فى أوائل عهده وفى مطلع حياته الشعرية ..

وشرعت أتصفح الكتاب متمعنا فيما يحويه ، فألفيت

صاحبه يتبرأ فى مقدمته من الظلم ، ويتشيع للعدل والانصاف ، ثم هو ينعى على أدباء زمانه ومتأدبيه حالة ننعيها نحن على متأدبى زماننا وناشئته ، اذ يؤخذون بالشهرة فى الادب ، فهم يتشيعون للشاعر او الكاتب متى كان اسمه معروفا وفى المجالس بالشهرة محفوفا ، فاذا قرأوا لشاعر من هذا الطراز قصيدا ، أو طالعوا لكاتب مشهور مقالا حكموا له بالسبق والتقديم . وتحدثوا معجبين ببلاغته وفصاحته وما له من سمو الفكرة وسعة الخيال واصابة المرمى ، وما الى ذلك مما لا ينهض به كل قصيد أو مقال من القصائد والمقالات التى تزدان بامضاء أديب مشهور

وقد حدثنى أديب مجهول انه كتب مرة قطعة ادبية فى رثاء والدته ، وكتب عليها انها ترجمة لقطعة وضعها « أناتول فرانس » يرثى بها والدته . ثم قدم الاديب المجهول قطعته لاحدى المجلات العربية الكبرى فحازت اعجابا كبيرا لدى رئيس هذه المجلة وعنى بنشرها بين المقالات الاولى فى مجلته

وما ذلك الا لان أناتول فرانس قد حاز من الشهرة ما جعل كل شىء ينسب اليه محبوبا مقبولا . ويظهر ان الشهرة تعمى عن العيوب ، فهى تقرب الشخص الى الناس بحيث ينسون نقائصه ولا يرون زلاته ، ويتمثلونه بريئا من كل عيب ونقص وأغلب الظن أنهم يعمون عن محامده ! واذا كانت له ناحية أو نواح جديدة بأن تحظى بالتقدير والاعجاب طغت الشهرة عليها ، فأغرقتها بين سائر النواحى التى يتشيع لها الجهلة والطغام . وكذلك الشهرة فى زماننا وفى الزمان الذى شكا منه صاحب كتاب « سرقات المتنبى »

وقد ظننت أن صاحب « سرقات المتنبى » سينهج لنفسه منهجا حسنا خصوصا بعد ما قدمه فى مقدمته من التبرؤ من الظلم والتشيع للعدل والانصاف ، ولكن الرجل ــ على ما يظهر ــ كان موغر الصدر على المتنبى ، وكان حاقدا عليه كل الحقد لشهرته التى حازها واصبحت كالقدر الذى لا يغالب ! وقد حفزه على وضع كتابه هذا كلمة سمعها من أديب متشيع للمتنبى فى أحد مجالس الرؤساء ، خلاصتها : « سبحان من ختم بهذا الفاضل (يعنى المتنبى) الفحول من الشعراء وأكرمه ، وجعل له من المحاسن ما يعثر فيه كل من تقدمه . ولو انصف لعلق شعره كالسبع المعلقات من الكعبة » .. !

فرد عليه أبو سعيد بكلام لولبى لاذع أثبته فى مقدمة كتابه . وهو من أجود ما يرد به على خصم ، وينتقص به مقدار شاعر قد امتلكت شهرته القلوب والاذهان واصبح لا حيلة لحاقد عليه الا أن يتمحل عند ذمه فى ثنائه ، ويستعبر محامده لاظهار نقائصه ويستخدم دلائل قوته لاشهار مواطن ضعفه بأسلوب أدبى أظن لو عنينا بدرسه فى هذه الايام لأغنانا عن الاساليب المنحطة التى يستخدمها بعض الكتاب فى المهاترات الادبية والسياسية ، ولكان لنا من ذلك أسلوب فنى يلذ لكل أديب ومحب للأدب أن يقرأه للفن فقط ولو لم يكن له صلة بموضوعه

على أن أبا سعيد قد ذكر للمتنبى سرقات هى أبعد ما تكون عن وصف السرقة ، بل ان بعضها يشهد بفضله ، ويدل على أن أبا سعيد قد بالغ وتجاوز حد أوصاف السرقة والسلخ والمسخ والنسخ التى يذكرها علماء البديع ، واوغل فى ذلك كله حتى ترى أن الرجل قد لج فى غلوائه ، وتجنى على المتنبى فى كثير من الابيات التى

ادعى أنها مسروقة . وما رأيك فى قول أبى سعيد من ان أبا الطيب المتنبى قد اخذ هذا البيت :

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفـــة فلعـــلة لا يظـــلم

من قول محمد البيدق الشيبانى :

والظلم طبعك والعفـــاف تكلف
والطبع أقوى ، والتكلف أضعف

***

وما رأيك أيضا فى قول المتنبى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله
وأخو الجهـالة فى الشقاوة ينعم

هل ترى كما رأى أبو سعيد انه مأخوذ من قول محمد البجلى الكوفى :

هـــذا الزمان شئوم	كما تراه غشـــوم
الجهل فيه جميـــل	والعقـــل غث ملـــوم
والمـــال طيف ولـــكن	على اللئـــام يحـــوم

نقول هل ترى كما رأى أبو سعيد مع ان معنى بيت المتنبى يخالف معنى البيت الثانى من هذه الابيات الثلاثة وهو الذى يشير أبو سعيد ان المتنبى سطا عليه فسلبه معناه ؟.. هذا فضلا عن اختلاف الصياغة التى هى فى الحقيقة أهم ما يعول عليه النـاقد النزيه ، والتى هى الميزة التى تنفرد بها شخصية كل شاعر وكل أديب . اما المعانى فهى شائعة على أفواه العامة أكثر من شيوعها على أفواه الادباء وهى تتوارد على خـــواطر الكبـــار والصـــغار والعلمـــاء والجهلاء ، والمعول عليه أن يكون الانسان له ملكة يستطيع بها التعبير عن هذه المعانى . وتختلف منازل الادباء باختلاف القدرة فى اجادة التعبير

وحسن البيان وقوة التأثير . وان الأمى الجاهل ليلهج من المعانى بما لو صيغ صياغة فنية لكان آية من آيات البلاغة ومعجزة من معجزات البيان ..

لذلك أرى ان السرقة الادبية لا تكون سرقة حقيقية، الا اذا سطا الاديب أو الشاعر على صياغة شاعر من الشعراء وعلى خياله وانتحل شخصيته فى تعبيره الذى يميزه عمن سواه مع الأخذ من معناه أو لفظه . اما أخذ المعنى مجردا وصوغه صياغة فنية أخرى يبث فيها الشاعر روحه ، ويطبعها بطابعه ، فليس ذلك بسرقة . وانما مثل الشاعرين فى هذه الحال كمثل مصورين وقفا أمام منظر واحد من مناظر الطبيعة المشاعة بين الجميع، فرسم كل منهما له صورة تتسق مع ذوقه ، وتتفق واحساسه بالجمال ومقدار تأثره به . فترى لكل منهما طابعا خاصا مع وحدة المنظر ، وتطالع فى كل صورة منهما روحا تختلف عن الاخرى ، وذوقا يخالف ذوق الآخر . ويمكنك فى هذه الحال أن تحكم أيهما أبرع فى التصوير ، وأقدر على استخدام موهبته أحسن استخدام ..

***

وهذا ما أريد أن أقرره بين شوقى والمتنبى ، فشوقى بدأ حياته الشابة بالنسج على منوال المتنبى ، وتشبع بروحه من الصغر ، واخذ فى أول حياته يقلد المتنبى ويحذو حذوه ويعارضه . وله فى هذا الاحتذاء وتلك المعارضة بعض القصائد الكبرى !..

على ان احتذاء المتنبى ومعارضته ليستا من السهولة بحيث يغفل الناقد عندها ما وهب شوقى من مقدرة على احكام الاحتذاء والمعارضة ، وما منح من ملكة خصبة

تساعده على أن يعارض شاعرا من اكبر شعراء العربية ويجيد فى تلك المعارضة الى حد جدير بالتقدير ..

لقد تقرأ القصيدة من قصائد شوقى التى يعارض فيها قصائد المتنبى فتحس فيها بتلك القوة التى امتاز بها ، وتشاهد من فيض المعانى والحكم ما يقنعك بأنه شاعر فياض . فاذا رجعت الى قصيدة المتنبى وجدت بعض أبياتها بمثابة الدليل الذى يرشد شوقى ، والقائد الذى يقوده ، ولكنك تجده فى بعض الاحيان يسبق الدليل أو القائد بخطوات كثيرة ويزيد عليه وترى مظهر هذه الزيادة فى عدد الابيات والاغراض المتعددة التى يقتضيها الموضوع ..

ولنضرب لذلك مثلا ، بقصيدة شوقى « صدى الحرب » فى وصف الوقائع العثمانية اليونانية التى مطلعها :

بسيفك يعلو الحق ، والحق أغلب
وينصر دين الله أيان تضرب

فان عدد ابياتها ٢٦٠ بيتا تناول فيها مدح السلطان عبد الحميد ، وعيد جلوسه ومعجزات الجنود على الحدود ، والحالة فى بحر الروم ، ومنعة السواحل العثمانية ، وزينب المتطوعة فى الموقعة ، ومضيق ملونا ، والقائد عبد الازل باشا ، وهزيمة طرناو ، والتلاقى على سهل فرسالا ، وغصب دوموقو ، وأحلام اليونان ، وعفو السلطان ، والتماس القبول ..

فهذه القصيدة هى عدة قصائد مجتمعة قد اختلفت اغراضها وصورها وان اتحدت فى الوزن والقافية ، وهذا ما ساعده على اطالتها الى هذا الحد ..

فاذا قارناها ببائيــة المتنبى التى يمدح فيها كافورا والتى مطلعها :

أغالب فيك الشوق ، والشــوق اغلب
واعجب من ذا الهجر والوصل أعجب !

وجدنا ان شوقى قد اتخذ هذه القصيدة كالدليل فى نظم قصيدته ، ولم يكتف بذلك بل انه عمد الى محاكاة تراكيبها ومعانيها واقتبس نحو عشرين بيتا من أبياتها ، نقول اقتبس نحو عشرين بيتا من سبعة واربعين وهى عدد أبيات قصــيدة المتنبى ، وأدخلهــا بصياغتها فى قصيدته . وقد كنا ننزهه عن السرقة فى هذه الابيات لو انه أخذ معنى هذه الابيات دون الصياغة التى هى طابع الشاعر ومظهر شخصيته . ولكن شــوقى على ما يبــدو كان يريد أن يظهر براعته فى محــاكاة المتنبى واحتذائه فيما عرف عنه من قوة السليقة ، ومتــانة الطبع وقدرته على تصريف القول بما لم يستطع احــد قبله أن يصرفه حتى غالبت ملكته القوية جميع أنداده من الشعراء وظهرت عليهم وجعلته يقول :

ودع كل صوت غير صوتى فاننى
انا الصائح المحكى والآخر الصــدى

***

لذلك حاكى « شوقى » الشاب عشرين او اكثر من العشرين بيتا ، وبدأ قصــيدته بالصياغة التى بدأ بها المتنبى قصيدته فقال :

(بســيفك يعلو الحق ، والحق اغلب)
وينصـــــر دين الله ايان تضرب

كما قال المتنبى فى مطلع قصيدته :

(أغالب فيك الشوق ، والشوق غالب)
وأعجب من ذا الهجر والوصل اعجب !

ثم يأبى شوقى الا أن يأخذ الشطر الآخر من بيت المتنبى ، فيقول فى موضع آخر :

تبالغ بالرامى وتزهو بما رمى
(وتعجب بالقواد والجند أعجب)

***

وهذا نفس ما فعله شوقى الشاب فى مطلع قصيدة اخرى ، بل فى مطلع عدة قصائد . من ذلك قصيدته فى مدح الخديو السابق الذى يقول فى مطلعها :

(يود من الارواح ما لا توده
ويفتك فيها مسرفا وهى جنده)

فقد أخذه من مطلع قصيدة المتنبى فى مدح كافور وهو :

(أود من الأيام ما لا توده
وأشكو اليها بيننا وهى جنده)

ولست أريد أن أتوسع فى هذا الباب ، وحسبى فى هذا الحديث أن أتكلم عن قصيدة « صدى الحرب » التى نحن بصددها ، والتى كان شوقى نفسه يفاخر بها فى أيامه الاخيرة ، وقد جعلها ثالث قصيدة فى الجزء الاول من ديوانه الجديد ..

قال شوقى فى مطلع هذه القصيدة أيضا :

(وينصر دين الله ايان تضرب)

وهل تحسب انه عبر هذا التعبير الا وهو ينظر الى ما قاله المتنبى فى بعض ابياته :

(اراقب فيه الشمس أيان تغرب)

وقد يحسب بعضهم اننــا نتجنى على شوقى حينما نقول انه احتذى الصياغة ، ولكن الواقع انه احتــذى او على الأقل اهتدى بتعبير المتنبى لـكى يفصح عما فى ضميره . ولعل عذره انه ما زال شابا فى ذلك الحين ، وانه أطال قصيدته الى حد أصبحت فيه ستة أضعاف قصيدة المتنبى !.. وكانت سـنه ٢٩ عاما ، اذ كانت هذه الحرب عام ١٨٩٧ م ..

ثم يقول شوقى :

ومملـكة اليــونان محلــولة العرى
(رجاؤك يعطيهــا ، وخوفك يســلب)

وقد أخذه من قول المتنبى :

اذا لم تنط فى ضيعة أو ولاية
(فجودك يكسوَنى ؛ وشـغلك يسلب)

***

ويقول شوقى :

تروح المنايا الزرق فيه وتغتــدى
(وما هى الا المــوج يأتى ويــذهب)

فأخـــذه من المتنبى وسلخ خياله فجعله للبحر بدل الفرس فى قول المتنبى يصرف فرسه :

له فضــله عن جســمه فى اهابه
(تخبىء على صــدر رحيب وتذهب)

ويقول المتنبى فى وصف فرسه بعد البيت السابق :

(شققت به الظلمـــاء أدنى عنــانه
فيــطغى وأرخيــه مرارا فيلعب)
(واصرع اى الوحش قفيتــه به
وانزل عنه مثــله حــين اركب)

فيأتى شوقى ويسطو على هـذا الوصف ويقول فى وصف الحاج عبد الازل باشا وفرسه :

اذا شهداها جددا هزة الصبا
كما يتصابى ذو الثمانين يطرب
(فيهتز هـذا كالحسام وينثنى
وينفر هـذا كالغزال ويلعب)

الى أن يقول :

(ذرونى وشأنى والوغى لا مباليا
الى الموت أمشى ام الى الموت اركب)

وانت اذا قارنت هـذا البيت والذى سبقه ببيتى المتنبى تجد ان شوقى اقتبسهما أو سطا على خيالهما سطوا واضحا ، ورأى أن لا مفر من اخذ كلمتى «يلعب» و « اركب » مع أخذه من خيال المتنبى معناه ..

***

وانظر الى شوقى اذ يقول :

فقبّلت كفا كان بالسيف ضاربا
وقبّلت سيفا كان بالكف يضرب

ثم اقرأ بعد ذلك قول المتنبى :

(اذا ضربت فى الحرب بالسيف كفه
تبينت ان السيف بالكف يضرب)

ولو ان شوقى اخذ المعنى فى هـذه الابيات وصاغه صياغة أخرى تسمو عن صياغة المتنبى او لو انه وضعه وضعا أقوى من وضع المتنبى ونفث فيه من شاعريته لما بخلت عليه بالتقدير والاعجاب ، لأنه يكون قد أتعب نفسه وأتى من عنده بشىء ينبغى ان يكافأ عليه بالتقدير والاعجاب ..

ولكن شوقى رحمه الله كان وهو شاب مغرما بالمحاكاة والاحتذاء الى حد كبير . وهذه المعارضة وذلك الاحتذاء تلحظهما فى بعض آثاره التى خلفها حتى فى كتابه النثرى « أسواق الذهب » الذى وضعه على نسق « اطواق الذهب » للزمخشرى ، و « اطباق الذهب » للأصفهانى وليس هنا مجال واسع للافاضة فى هذا الموضوع ..

واسمعه وقد اراد أن يعارض المتنبى وهو يخاطب كافورا ويقول له :

سللت سيوفا علمت كل خاطب
على كل عمود كيف يدعو ويخطب

فيأتى شوقى ويقول ـ معارضا أو محاكيا ـ وهو يخاطب السلطان عبد الحميد :

حسامك من سقراط فى الخطب اخطب
وعودك من عود المنابر اصلب

***

وهذا مسخ ما بعده مسخ لبيت المتنبى . وما اشبه هذا التعبير بقول القائل : « طربوشك احسن من طربوشه ، وعصاك أجمد من عصاه » ، على انه فضلا عن هذا التقليد والتعبير المسوخ قد وقع فى خطأ نحوى فى هذا البيت حيث قدم «من» والمفضول : «من سقراط » و « من عود المنابر » على افعل التفضيل : « اخطب » و « اصلب » والصحيح أن يقال : حسامك اخطب من سقراط ، وعودك اصلب من عود المنابر ..

وقد وقع فى مثل هذا الخطأ فى البيت الذى يليه :

وعزمك من هومير امضى بديهة
واجلى بيانا فى القلوب واعذب

وأراد أن يغطى السرقة فى الشطر الثانى فقال اجلى « بالجيم » بدل أحلى ، وفى القلوب بدل فى الفؤاد ، كما قال المتنبى :

فان لم يكن الا أبو المسك أو هم
فانك أحــلى فى الفؤاد وأعــذب

وفى هــذا التغيير بين أحلى وأجلى ، وفى الفؤاد وفى القلوب ، ما يدل على ان السرقة والتلاعب مقصودان ..

وقد أخطأ شوقى أيضا فى قوله :

فلمــا دجى داجى العوان وأطبقت
(تبلج والنصر الهــلال المحجب)

و « النصر » فى هذا البيت مفعول معه و « الهلال » مصحوبه . وقد تقدم هنا المفعول معه على مصحوبه ، وهذا خطأ نحوى لأنه من المقرر عند علماء النحو الا يتقدم المفعول معه على عامله فلا تقول « والنيــل سرت » ولا على مصحوبه فلا تقول « أقبل والجيش الأمير » . وما فى هذا البيت ينطبق على هذا المثال . والصواب أن يقال فيه : تبلج الهلال والنصر ..

***

ثم نرجع فنقول ان شوقى أبى الا أن يوغل فى الأخذ من قصيدة المتنبى غير هياب ولا وجل ، وكأنها مباحة له ، فاذا قال المتنبى :

ولو جاز أن يحووا علاك وهبتهـا
ولكن من الاشياء ما ليس يوهب

تبعه شوقى فقال :

فلولا سـيوف الترك جرب غيركم
ولــكن من الاشـياء ما لا يجرب

واذا قال المتنبى :

واظلم أهل الظلم من بات حاسدا
لمن بات فى نعمـــــائه يتقلب

انتحل شوقى الشطر الثانى من هذا البيت فقال :

سلاما « ملونا » واحتفاظا وعصمة
لمن بات فى عالى الرضـــا يتقلب

واذا قال المتنبى :

وكل امرىء يولى الجميـــل محبب
وكل مكان ينبت العـــز طيـــب

حسده شوقى فأبى الا أن يأخذه لنفسه أو يأخذ صياغة الشطر الثانى ويضيفها الى شعره بلا تورع ولا اباء ، فيقول :

وهل أنت الا الشمس فى كل أمة
فكل لســـــان فى مديحك طيب

***

وانك لتجد فى بيت شوقى تخلخلا وعدم ارتباط لأن الشطر الثانى غير منسجم مع الاول كانسجامه فى بيت المتنبى الموضوع فيه وضعا طبيعيا ..

وكذلك اذا قال المتنبى :

وأخـــلاق كافور اذا شـــئت مدحه
وان لم أشـــأ تملى على واكتب

يأتى شوقى فيعارضه فيقول مخاطبا السلطان :

مدحتك والدنيـــا لسان وأهلهـــا
جميعـــا لســـان يمليـــان واكتب

ويقول المتنبى مخاطبا كافور بعد البيت السابق :

اذا ترك الانســـان أهـــلا وراءه
ويمّم كافـــورا فمـــا يتغـــرب

فيقول شوقى :

يلاقى بعيد الأهل عندك أهله
ويمرح فى أوطانه المتغرب

لا اريد ان اطيل فى ايراد الامثلة من هذه القصيدة والتى أودع فيها شوقى كثيرا من صياغات المتنبى وتعبيراته وأخيلته ومعانيه . ولقد جرت بينى وبين أحد الادباء مناقشة فى هذا الصدد فكان اعتذار هذا الصديق عن شوقى انه قال هذه القصيدة فى شبابه ومفتتح حياته وقد صدق فى ذلك . على انه اذا كانت هذه القصيدة ليست من عيون الشوقيات التى يفاخر بها شوقى فلماذا وضعها فى صدر الجزء الاول من ديوانه الجديد ، ولماذا لم يحذف الابيات التى انتحلها من المتنبى وغيره ، ثم لماذا بدت هذه الروح بعد ذلك فى بعض قصائده الاخيرة ، بل فى آخر مرثية له ، وهى التى رثا بها حافظ ابراهيم :

ووددت لو انى فداك من الردى
والكاذبون المرجفون فدائي

فقد نسجه من قول المتنبى :

تطيع الحاسدين وانت مرؤ
جعلت فداءه وهم فدائى

***

ونستطيع ان نأتى بكثير من الشواهد على معارضة شوقى للمتنبى ، واحتذائه لبعض ابياته حتى من قصائده الاخيرة التى لم يمض عليها غير بضع سنوات . اليس شوقى هو الذى حذا حذو المتنبى فى مطلع قصيدته التى مدح بها على بن منصور الحاجب ، والتى بداها بالغزل ، فقال :

بأبى الشموس الجانحات غواربا
اللابسات من الحرير جلاببا
المنبهات قلوبنـــا وعقولنـــا
وجناتهن الناهبـــات الناهبـــا
الناعمات القاتلات المحييـــا
ت المبديات من الدلال غرائبا
حاولن تفديتى وخفن مراقبا
فوضعن أيديهن فوق ترائبـــا
وغيمن عن برد خشيت أذيبه
من حر انفاسى فكنت الذائبا

واستمر فى هذا الغزل الى أن تخلص الى ممدوحه ، فقال :

حال متى علم ابن منصور بها
جاء الزمان الى منهـــا عاتبـــا

فجاء شوقى على هـــذا المنوال وعلى هذه الصياغة نفسها وان اختلفت المعانى ، فقال :

بأبى وروحى الناعمات الفيدا
الباسمات عن اليتم نضـــيدا
الرائيـــات بكل احـــور فاتر
يذر الخلى من القلوب عميدا
الراويات من السلاف محاجرا
الناهلات سوالفا وخـــدودا
اللاعبات على النسيم غدائرا
الراتعـــات مع النسيم قدودا
اقبلن فى ذهب الاصيل ووشيه
مثل الفـــلائل لؤلؤا وفريدا
الى آخر ما قال ...

ولست أريد أن أظلم شوقى أو أتجنى عليه خصوصا بعد أن خلا ميدانه وأصبح تاريخا بين طيات الزمن بعد أن كان شخصا مجسما له مطامعه التى كان لايألو جهدا فى ارضائها بما جبلت عليه نفسه من حب الشهرة والغرام بها والسعى اليها من كل سبيل ..

نعم لا أريد أن أظلمه أو أتجنى عليه ، وأنا أعلم أن له من القصائد العصماء أضعاف ما للمتنبى من قصائد، مع طولها وخصب خيالها ومعانيها ، وما تكفى الواحدة منها لأن تخلد ذكره وان هناته أقل من غيره من الادباء السابقين والمحدثين ، وأن له من الفضل فى النهضة الادبية فى الاقطار العربية ما يجب أن يعترف به كل من يتصدى للكتابة عنه ، ولكننى أقصد فيما أكتبه هنا أن أتحرى خدمة الأدب نفسه ، وأكشف عن صورة من حياة شوقى ..

ولا بد من الاشارة الى ان شوقى خلف من الآثار الادبية والروايات الشعرية ما لم يخلفه المتنبى أو غيره وان كبار الشعراء المتقدمين والمحدثين طالما احتذوا حذو غيرهم فى المعنى ، وعارضوهم كما عارضهم شوقى بكفاءة وقدرة ، والمعارضة ليست سهلة لكل شاعر . وقد اطلعت على كتاب يسمى « المختار من شعر بشار» اختيار الخالدين « أبى بكر محمد وأبو عثمان سعيد » وقد شرح هذا الكتاب اسماعيل بن احمد القيروانى ونص فيه على ما أخذه بشار ممن تقدمه من كبار الشعراء ، وما أخذه الشعراء منه ، حتى المتنبى وأبى تمام وعلى ابن الجهم وغيرهم . ولم يقل انه سرق او احتذى ، ولكنه قال ان المعانى مطروحة فى الاسواق ، وان الفضل لمن يصوغها فى أسلوب جديد أقوى وابلغ !

على ان شوقى لم يكن يقر سرقة الشعر ، واذا كان فى قصيدة « صدى الحرب » قد احتـــذى المتنبى ، وحاكى بعض ابيات قصيدته فى مدح كافور، فان ذلك كان من رياضة القول والتظاهر ببراعتـــه فى محاكاة المتنبى ومعارضته . ولهذا ترجم شوقى بيتين للشاعر الفرنسى « الفريد دى موسيه » يقول فيهما :

لا تسرق الشـــعر واتركه لقـــائله
فان أقبـــح شىء سرقـــة النـــاس

انى وان صـــفرت كأسى أخو ادب
أسقى وأسقى أولى الألباب من كاسى



اسواق الذهب

لما أذيع في حياة شوقي انه سيصدر كتابا نثريا يدعى « اسواق الذهب » تساءل كثيرون هل شوقي يجيد النثر وهل هو يسمو به الى تلك المكانة العليا التى سما اليها في عالم الشعر ؟ ..

وكان تساؤلهم يشوبه شيء من الشك والانكار لأنهم اعتادوا منذ اربعين عاما ـ أو تزيد ـ أن يروا اسم شوقي مقرونا بالشعر ، وان يشاهدوه فى كل مناسبة شاعرا ينظم القصيدة تلو القصيدة ويطلع على الناس بآياته البليغة ودرره الغالية من القصائد العصماء التى ملكت على قراء العربية مسالك الاعجاب ودلت على ما لناظمها من ملكة شعرية نادرة سبق بها كثيرا من كبار الشعراء وجعلته جديرا بأن يحمل لواء الشعر وان يجلس على أريكة الزعامة بين شعراء العصر الحاضر على الرغم من هناته القليلة ..

***

نعم ، كان كثيرون يسألون هذا السؤال للسبب الذى ذكرناه ، ولأنه لم يصدر قبل « اسواق الذهب » مؤلفا نثريا ولم يسبق له ان كتب فى الجرائد مقالات أو فصولا

نثرية ، ولم يروا له من الـكتابات النثرية الا مقـدمة ديوانه الاول الذى طبعه منذ عشرين أو خمسة وعشرين عاما وتلك التحليلات التى ألحقها برواياته التمثيليـة الشعرية ، ثم رواية «أميرة الاندلس» النثرية و «الست هدى » ورواية « البخيلة » ..

وقد كتب فى المقدمة صفحات عن الشعر ومكانته فى اللغة العربية ثم ألحقها بترجمة حياته . أما التحليلات النثرية فقد ادعى البعض ان شوقى لم يكتبها وانه كلف أحد أنصاره بكتابتها . على اننى لا أرى ان هذا الادعاء يمت الى الصواب بصلة . وأغلب الظن عندى ان كاتب هذه التحليلات هو « شوقى » نفسه وانه على الرغم من قوله « اختار المؤلف » أو « قصد المؤلف » وما الى ذلك من التعبيرات ، أقول على الرغم من ذلك فانى أرجح ان هذه « التحليلات » بقلم شوقى خصوصا اننا لم نر فى حياته من ادعى انه كاتبها ! !

ولست أريد من اثبات ان هذه التحليلات بقلم شوقى الا أن أضيف الى آثاره شيئا يصح ان اعتمد عليه فى بيان رأيى فى نثره المرسل ..

***

لقد قرأت ديوانه الاول منذ سنوات ومررت بتلك المقدمة التى صدر بها هـذا الديوان ، فأعجبنى منها حسن الأداء وسهولة الأسلوب ، وهى وان كانت خالية من التألق فى التعبير الا انها يصح ان تكون نموذجا جيدا للكتابة المرسلة العادية الخالية من التكلف على نحو ما كانت تكتب فى ذلك الوقت صحيفتا «المؤيد» و«اللواء» ، وما جرى مجراهما ..

وكذلك الحال فى التمهيدات والتحليلات التى الحقها

برواياته ورواية « أميرة الاندلس » فهى كتابات سليمة تؤدى الفرض الذى اريد بها بلا كلفة ولا تعقيد ..

بقى عندنا « أسواق الذهب » وهو كتاب نحا فيه شوقى منحى الزمخشرى فى مؤلفه « أطواق الذهب » والاصفهانى فى كتاب « أطباق الذهب » . ولذلك سمى هذا الكتاب بما يشابه اسميهما . وقد ضمنه عبراً وامثالا وحكما من تأليفه وتناول فيه عدة موضوعات مختلفة كالوطن ، والجندى المجهول ، والذكرى ، والحرية ، والشمس ، والحياة ، والموت ، واليوم ، والفد ، الى آخره ..

وقد استخدم فيه ما عدا قليلا منه أسلوب السجع. وهو أسلوب فنى من أساليب اللغة العربية لا نستطيع أن ننكره ، وهو ليس بالهين السهل على كل من يزاول صناعة الأدب لأنه يحتاج الى مقدرة لغوية وفنية كما يحتاج الشعر الى مقدرة وموهبة الا انه لايصلح لكل زمان ولا يستسيغه كل انسان . وهو أكثر شيوعا فى العصور التى تسود فيها الصناعة اللفظية على البراعة المعنوية . وهو أقرب الى الاستهجان اذا كان ضعيفا ركيكا ، ولم يحسنه الكاتب ولهذا كان السجع مظهر انحطاط اللغة العربية فى عصورها المتأخرة التى أساء فيها الكتاب استعماله ونزلوا به الى درك أشبه باللغو منه بالادب الصحيح ..

***

ويرى شوقى أن السجع الفنى شعر العربية الثانى ، ويقول فى كتابه « أسواق الذهب » : « السجع شعر العربية الثانى وقواف مرنه ريضة خصت بها الفصحى يستريح اليها الشاعر المطبوع ويرسل فيها

الكاتب المتفنن خياله ، ويسلو بها أحيانا عما فاته من القدرة على صياغة الشعر. وكل موضع للشعر الرصين محل للسجع . وكل قرار لموسيقاه قرار كذلك للسجع. فانما يوضع السجع النابغ فيما يصلح للشعر الرصين من حكمة تخترع أو مثل يضرب أو وصف يساق. وربما وشيت به الطوال من رسائل الادب الخالص ووضعت به القصار من فقر البيان المحض . وقد ظلم العربية قوم قبحوا السجع وعدوه عيبا فيها .. » الخ ..

ذلك ما رآه شوقى فى السجع . ونحسب انه قد أراد منه أن يبرر هذا الأسلوب الفنى المسجع الذى استخدمه فى معظم كتاباته ..

وهو يذكر ان السجع شعر العربيـة الثانى ، ولهذا تراه يسلك فى انشائه نهجا هو بالشـعر الصق ويكتب سجعات لو اننا أخذنا بعضها لصلحت أن تكون شعرا موزونا ثم لو أخذنا البعض الآخر وادخلنا عليه قليلا من الحذف أو الزيادة لأمكن ان نصنع منه ابياتا من الشعر. مثال ذلك ما يقوله فى الجندى المجهول :

ذلك الفقل فى الرمم　　　صار نارا على علم

وهو بيت موزون من مجزوء الخفيف ، أو ما يقوله فى وصف الوطن :

مراد الرزق ومطلبه　　　وطريق المجد ومركبه

وهو بيت موزون من بحر المتدارك ، ولو اننا حرفنا هاتين السجعتين بعض التحريف : « مجرى الصـبا وملعبه » و « عروس الشباب وموكبه » لأمكن ان يكونا بيتا من الشعر ..

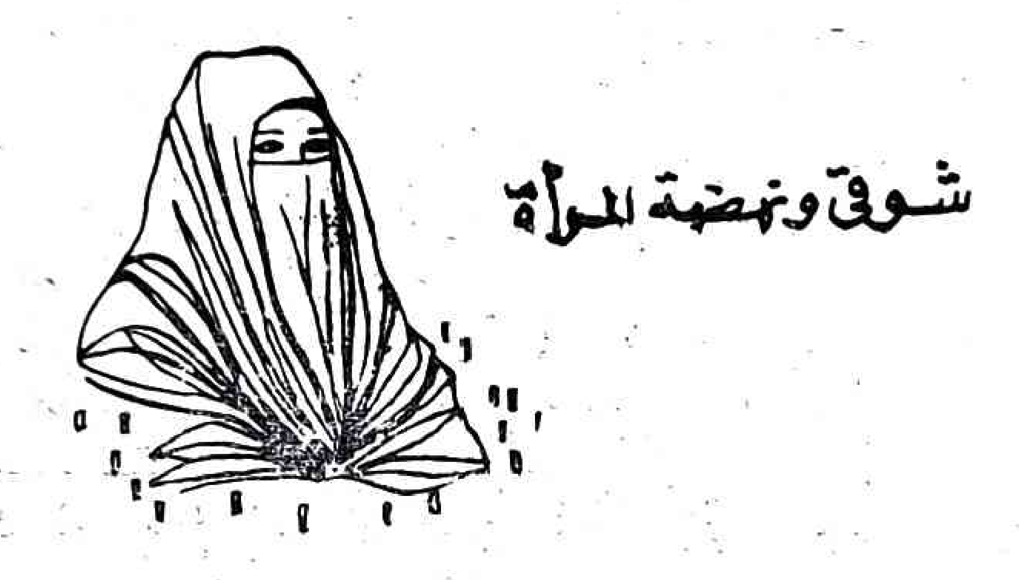
***

وكذلك قل فى كثير من السجعات التى وردت فى هذا

الكتاب مما يدل على ان شوقي كانت تغلب عليه شاعريته فتأتى سجعاته كأنها أنصاف آبيات من الشعر ، هذا ما عدا تعبيراته فى أوائل كثير من السجعات التى هى فى الحقيقة تعبيرات شعرية محضة . وقد أحسن رحمه الله حين وصفها فى تعليقه على بعض الفصول بأنها شعر منثور ..

وللشعر المنثور معايبه ومحاسنه ولكنه فى كثير مما كتبه شوقي فى كتابه « اسواق الذهب » نرى انه قد سما الى غاية تشهد له بالمقدرة فى هذا الباب . اقرأ له « الوطن » أو « الجندى المجهول » أو « البحر الابيض المتوسط » أو « الاهرام » أو وصف « الاسد » أو اقرأ هذا الكتاب كله ، بما ألحقه من حكم وأمثال فى آخره .. تجد ان شوقى الشاعر الذى مضى عليه نحو خمس وأربعين عاما ينظم الشعر قد استطاع أن يبدع فى السجع مثلما أبدع فى الشعر . بل يأتى فيه بآيات لم يأت بها الزمخشرى ولا الاصفهانى ! ..





شوقى ونهضة المرأة

الذى يتصـــفح آثار شوقى يرى ان المراة فيها تكاد تكون مهملة ، وانه لولا ثلاث قصائد، بل قصيدة واحدة ، نظمها فى الحجاب والسفور لخلا شعر شوقى من ذكر المراة من الوجهة الاجتماعية التى نعنيها فى هذا المقال . فان الغزل أو النسيب أوالتشبب بالمراة علىعادة القدماء موجود بكثرة فى قصائد شوقى ، بل ان له بابا خاصـا فى الجزء الثانى من ديوانه . وهذا لايعنينا فى النظر الى المجهود الذى قام به «شوقى» نحو النهضة النسائية..

لقد بدأت النهضة النسائية فى مصر منذ زمن طويل، وسمع شوقى فى عهده صوت زعيمها « قاسم امين » منذ ارتفع يهيب بالمجتمع ان يفك قيود المراة ويعطيها حقها من الحرية والكرامة .. فماذا قال شوقى فى تأييد هذا الزعيم ، وماذا نظمه وهو شـــاعر العصر والمنفرد بامارة الشعر فى ذلك الزمان . لقد سكت شوقى يومئذ سكوتا تاما . ولعل له عذرا فى ذلك ، فقد كان شـــاعر « الحضرة الفخيـــمة الخديوية » وكانت الأمة المصرية وقتئذ فى حالة لا تسمح لها بقبول هذه الآراء الجديدة ، وقد ألفت ان ترى المراة كالطير المسجون فى القفص ، أو

كالتحفة التى تحاط بالحجب والستائر والإقفال . فاذا ناصر شاعر الخديو فى ذلك الوقت دعوة مثل هذه الدعوة التى جهر بها قاسم أمين فقد عرض نفسه لغضب الخديو وغضب الأمة التى تعارض أكثريتها هذه الدعوة

هذا ما يمكن أن نعتذر به عن سكوت شوقى فى ذلك الوقت ، على ان بعضهم كان يعتقد ان سكوت شوقى عن مناصرة السفور كان عن عقيدة راسخة فى ذهنه ويستشهد لذلك بقصيدته التى قالها فى الحجاب والسفور وأهداها الى اديبة الشرق العربى « باحثة البادية » ومطلعها :

صداح يا ملك الكنار ويا أمير البلبل

ومنها :

بالرغم منى ما تعا لج فى النحاس المقفل
حرصى عليك هوى ومن يحرز ثمينا يبخل

***

والقيد لو كان الجما ن منظما لم يحمل
يا طير لولا ان يقو لوا جن قلت تعقل

***

صبرا لما تشقى به أو ما بدالك فافعل
انت ابن رأى فى الطبيـ ـعة فيك غير مبدل
أبدا مروع بالأسا ر مهدد بالمقتل
ان طرت عن كتفى وقعـ ـت على النسور الجهّل

***

صداح حق ما اقو ل حفلت أو لم تحفل
جاورت اندى روضة وحللت اكرم منزل

الى آخر هذه القصيدة ، وهى طويلة ويعنى بالكنار (وهو العصفور) المرأة ..

وقد فهم بعضهم من هذه القصيدة ان شوقى يؤيد الحجاب ويعتذر بالخوف علي المراة من تطاول السفهاء اذا هى سفرت واشتركت فى الحياة العامة ، فرد على شوقي في صحيفة « الجريدة » بقصيدة علي لسان « الباحثة » . ولعله والدها « حفني ناصف » . ومن هذه القصيدة :

سميتنى ملك الكنا ر ، وانت رب المنزل
وجعلتنى رهنا لأقـ ـفاص الحديد المقفل
غللتنى وسجنتنى خوف اصطياد الأجدل
ان لم تكن لى حارسا من كل عاد مقبل
فالحصن والبيداء يسـ ـتويان عند الأعزل
لو كان حبك صادقا لفككتنى من معقلى

وفهم بعض الناس ان شوقى ينعى حال المراة ويستخف بشأنها ، وأول غيرهم تأويلات أخرى، فانبرت « باحثة البادية » التى أهديت اليها القصيدة تدافع عن شوقى وتفسرها تفسيرا آخر لتمحو سوء الظن عنها وتحول بين شوقى وهذه الشبهات التى تلحقه بالرجعيين ، فنشرت فى صحيفة « الجريدة » قصيدة طويلة جاء فيها :

رب الكنار أظنه عما زعمت بمعزل
خال الكنانة طائرا والشعر حسن تخيل
فحنا على مثواه فى قفص النحاس المقفل
ونعى زمان مراحه بين الربى والجدول
أهدى القصيدة فى «الجريـ ـدة » لى هدية مفضل
كمؤلف يهدى الكتا ب الى سرى امثل

فترى ان « باحثة البادية » تعتذر عن شوقى بأنه يريد بالطائر المحبوس فى القفص «مصر» ! وتؤول ماجاء

فى قصيدته هذا التأويل للدفاع عنه ، ولكنها تعود فى خلال القصيدة فترد هى نفسها على « شوقى » موجهة كلامها الى الفتاة المصرية ، فتقول :

أما السفور فحكمه فى الشرع ليس بمعضل

وما عدا هذه القصيدة التى اهداها « شوقى » الى « باحثة البادية » لا تجد فى ديوانه شيئا عن النهضة النسائية اللهم الا هذه الأبيات الستة التى جاءت فى رثائه للمرحوم « قاسم أمين » وفيها ما يدل على ميله الى الحجاب دون السفور ، وهى :

ماذا رأيت من الحجاب وعسره
فدعوتنا لترفق ويسار
اوددت لو كانت نساء النيل ما
كانت نساء « قضاعة » و « نزار »
يجمعن فى سلم الحياة وحربها
بأس الرجال وخشية الأبكار
ان الحجاب سماحة ويسارة
لولا وحوش فى الرجال ضوارى
جهلوا حقيقته وحكمة حكمه
فتجاوزوه الى اذى وضرار

أما القصيدتان اللتان أشرنا اليهما فى صدر هذا المقال ، فاحداهما عن « المراة العثمانية » وليس فيها شىء ينم على ان شوقى من دعاة حرية المراة ومساواتها بالرجال على نحو ما يدعو اليه زعيم النهضة النسائية . بل على العكس هو يرى ان وظيفة المراة فى الحياة ان تكون « اما » تلد البنات والبنين وتسخر لتربيتهم كما يقول مخاطبا المراة العثمانية :

يا ملكا تعبدا مصليا موحدا

مبـــــاركا فى يومــه والامس ميمــونا غدا
مســــــخرا لأمــــة من حقها ان تسعدا

أما ثانيتهما فهى القصيدة التى القيت فى جمع حافل من السيدات بمسرح حديقة الازبكية . وقد بدأها امير الشعراء بقوله :

قم حى هــذى النبرات حى الحسان الخيرات
واخفض جبينك هيبة للخـــــرد المتحفــزات
زين المقاصر والحجال وزين محراب الصــلاة
هــذا مقام الأمهــات فهل قدرت الأمهــات

وهذه الأبيات لا تغير شيئا مما ذكرناه عن « شوقى » ونهضة المراة الا انه على مايظهر اضطر ان يجارى النهضة الحديثة ورأى من الحكمة ـ بعد ما زالت قيود الماضى ـ ان يعدل رأيه تعديلا يتلاءم مع التقاليد الدينية . فقال :

***

خذ بالكتاب وبالحديث وسيرة السلف الثقات
وارجع الى سنن الخليقة واتبـــع نظم الحيـــاة
هــذا رسول الله لم ينقص حقوق المؤمنات
العــلم كان شريعـــة لنســائه المتفقهـــات
رضن التجارة والسياسة والشــئون الأخريات

وقد يكون فى قصيدة « عبث المشيب » ما يدل على ان شـــوقى قد ســـاهم فى الدفاع عن المراة من بعض النواحى . فقد ناهض تعدد الزوجات وزواج الفتيات الصـــغيرات بالشيوخ الفانين ، وفيما عدا ذلك ليس لشوقى قصائد فى الشئون النسائية التى شغلت كثيرا من العلماء والأدباء فى هذا الأوان ..

على اننا لايمكننا ان نغمط شوقى حقــه ، فهو وان

كان يرى ان وظيفة المراة في الحياة « الأمومة » الا انه يعود فيفسر لنا رأيه في كتاب « أسواق الذهب » من ان الأمومة هي الشأن الأول للمرأة حيث يقول :

« الأمومة رسالة المرأة على هذه الأرض وشأنها الاول في الحياة ، وهى حجر الأســـاس فى الأسرة ، وقواعد المجتمع وأركانه منذ قام الى يوم ينفض . وفي الأمومة اجتمعت خلال البر ، ونوائب الحق، وتبعات الواجب، وصـــور البطولة ، وفضائل الايثار ومواطن الصـــبر الجميل » ..

وجميل من شوقى رحمه الله ان يعترف بان الأمومة هى الشأن الأول للمراة فى الحياة ، وأن يخصها بهذا الوصف والثناء مما يدل على تقديره للمراة صاحبة هذه الوظيفة ..

ومالنا لا نقول انه يعظم المراة ويقدرها وهو الذى خص كريمته وهى فى المهد بما لم يخص به « ولى عهده » وأول أنجاله من القصـــائد البليغـة فى ديوانه الأول ، ويقول فى بعضها :

ولى طفلة جازت السنتين	كبعض الملائك او اطهر
بعينين فى مثل لون السماء	وسنين يا حبذا الجوهر
أتتنى تسألنى لعبة	لتكسرها ضمن ما تكسر
فقلت لها : أيهذا الملاك	تحب السلام ولا انكر
ولكن قبلك خاب المسيح	وباء بمنشوره القيصر
فلا ترج سلما من العالمين	فان السباع كما تفطر
ومن يعدم الظفر بين الذئاب	فان الذئاب به تظفر

شاعر الحضارات



نحار حينما نقف من أمير الشعراء موقف الكاتب عن شعره القومى ، لا لأننا لا نرى بين قصائده شيئا من الشعر القومى ، بل لأن قوميته موزعة بين عواطف متعددة كالوطنية المصرية، والسياسة العثمانية، والديانة الاسلامية ، والجنسية العربية ثم القومية الشرقية العامة التى تجمع كثيرا من العواطف والقوميات والحضارات العالمية ..

فقدكان شوقى شاعر مصر، وشاعر الدولة العثمانية يشيد بتاريخها المجيد ، وشاعر الاسلام يفاخر بحضارته ، ويمدح « محمدا » نبيه ، ويتغنى بمدنياته الزاهرة . وكان شاعر العرب والعربية يعتز بالانتساب اليهما ، ويدافع عن حوزتيهما ، ويرثى لما يصيبهما من أرزاء ونكبات. ثم كان فضلا عن ذلك كله شاعر المدنيات الاجنبية الاخرى ، فأنت تقرأ له فى المدنية الفرنسية والايطالية واليابانية والانجليزية ما يشعرك بأن هذا الشاعر العظيم لم يكن ليقف شعره على شئون قومه ومظاهر نهضتهم وفخرهم ، بل كان يجول فى ميدان اوسع من هذا الميدان ، ويتناول من الموضوعات ما لو

سمح له الزمان بالاكثار منها ومضاعفة جهوده فيها لأصبح شاعر الشرق والغرب ، لا شاعر العربية وأمير شعراء العرب فقط ..

ولقد وفى قوميته المصرية حقها وقام بقسطه فى حمل لواء النهضة المصرية ووقف منها موقف شاعر الأمة الذى تعتز به وتستنير بمواهبه والذى يجعل من نفسه قائدا يستفزها الى الرقى والتقدم ويستنهضها الى مسابقة الأمم الراقية حتى اذا ونت أو ابطأت فى هذه السبيل ذكرها بما كان لأسلافها من مجد وعزة وسيادة تستثير فى نفوسها الحمية والحماسة وتدفعها الى السعى فى استعادة ما كان لها من مجد قديم ؟ ..

والذى يتتبع آثار شوقى لايمكنه أن ينكر ان هذه الآثار حافلة بأبلغ ما قاله شاعر فى مجد قومه واستنهاض امته والدفاع عنها وارشادها الى صلاحها والاعتراف بفضل العاملين فيها وتشجيع شبانها وبث روح النشاط فيهم وتقوية عزائمهم واغرائهم بالرقى ورفعة الوطن ..

واول مظهر لذلك ما يشهده القارىء فى القصائد التى مدح فيها مصر ومكانتها الممتازة ، وتاريخها الخالد ، ومن اهم هذه القصائد قصيدته فى « وادى النيل » وهى القصيدة العصماء التى قالها فى المؤتمر الشرقى الدولى فى مدينة جنيف فى سبتمبر عام ١٨٩٤ . وكان مندوبا للحكومة المصرية فيه ومطلعها :

همت الفلك واحتواها الماء

وحداها بمن تقل الرجاء

وقد عرض فى هذه القصيدة تاريخ مصر منذ القدم الى العصر الحديث ، ولو لم يكن له من الشعر المصرى الا هذه القصيدة لكفاه بها فضلا

على ان قصائده الاخرى « ابو الهول » و « توت عنخ آمون » و « فى سفح الاهرام » و « انس الوجود » و «الى النيل » و « اندلسيته » السينية لا تقل روعة ومكانة عن القصيدة السابقة فى باب القوميات . ونحن لا نعرف شاعرا قال فى وطنه مثلما قال شوقى فى هذه الابيات :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه فى الخلد نفسى
وهفا بالفؤاد فى سلسبيل
ظمأ للسواد من «عين شمس»
شهد الله لم يغب عن جفونى
شخصه ساعة ولم يخل حسى

***

ولم يقتصر شوقى فى قومياته على الاشارة بمجد وطنه وحضارته الغابرة، بل تناول شئونه الوطنية والاقتصادية والاجتماعية الحاضرة فنظم القصائد السياسية فى مشروع ملنر ومناصرة الوفد وفى الدستور وفى الحرية وفى ذكرى ١٢ نوفمبر و « تمثال نهضة مصر » و « ٢٨ فبراير » وقال فى زعماء الحركة الوطنية القصائد الطوال ما بين تأييدهم ورثائهم وتمجيد أعمالهم الوطنية . ومن ذا الذى ينسى قصائده فى مصطفى كامل ومحمد فريد رئيس الحزب الوطنى وسعد زغلول وعبد الخالق ثروت وامين الرافعى ، وعبد العزيز جاويش وغيرهم

وقد تناول شوقى الحياة الاقتصادية فنظم فيها عدة قصائد منها قصيدة « بنك مصر » و « قصيدة التموين » وغيرهما . اما قصائده الاجتماعية فمنها قصيدة « العمال » و « الهلال الاحمر » و « عبث المشيب »

و « أنتحار الطلبة » وغير ذلك مما تناول فيه شئونا اصلاحية هامة .. !

وتتسم الروح التى يخاطب بها شوقى قومه فى قصائده القومية ، كما تتسم أكثر قصائده بسمة الحكمة والارشاد . فهو يقف منهم موقف الحكيم الذى يضرب لهم الامثال ويرسل فى خلال كلامه الحكم والعظات البليغة ..

وأسمعه يقول فى قصيدة « بنك مصر » :

والمال مذ كان تمثالا يطاف به
والناس مذ خلقوا عباد تمثال
اذا جفا الدور فانع النازلين بها
او الممالك فاندبها كأطلال
بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم
لم يبن ملك على جهل واقلال

***

وكذلك أسمعه وهو يخاطب « العمال » بلغة المعلم الحكيم :

أيها العمال افنوا الـ　　عمر كدا واكتسابا
واعمروا الأرض فلولا　　سعيكم امست يبابا
ان لى نصحا اليكم　　ان أذنتم وعتابا

***

ولقد قلنا ان شوقى شاعر الحضارات القديمة والحديثة وشاعر الطبيعة والتاريخ وشاعر العرب والاسلام وشاعر الحرب والسلام وشاعر الانسانية والاخلاق والمجتمع

ولقد بلغ شوقى من النبوغ والشهرة ومن العبقرية

والخلود ما جاز به حدود بلاده الى بلاد العالم الاخرى .
وقد أثبت فى حياته الادبية ان الشعر العربى يستطيع أن ينفرد ويغزو كل ميدان ،وأن يتناول كل غرض من أغراض القصيد والقصة والرواية والمسرح ، وأن ينافس النثر فى دقة الحوار وبلاغة الاداء والتمثيل . وقد جارى شوقى فى مسرحياته الشعرية عظماء الروائيين أمثال شكسبير وراسين وفيكتور هوجو .. وملأ فى ذلك الجانب فراغا لم يملأه شاعر عربى قبله

***

ولا ريب أن مدينة روما التى احتفل باقامة تمثاله فيها ستذكر له ما خصها فى قصيده ورواياته من مكانة بارزة أضافت الى خلودها خلودا وجعلت لمجدها القديم صدى قويا فى عالمنا الحديث بين قراء العربية

لقد كان شوقى الشاعر العربى الكبير الذى انفرد بالاشادة بمجد روما قبل ستين عاما وهو فى نحو الثلاثين من عمره حينما عاد من معرض باريس العالمى وعرج عليها فى عودته الى مصر . وكان القرن التاسع عشر يأفل غاربا فى أطواء الزمن ، فما لبث بروما طويلا حتى أثارت شاعريته بما لها من آثار رائعة وذكريات عظيمة فنظم فيها قصيدته النونية التى أهداها الى صديقه اسماعيل رأفت وقدمها بخطاب جاء فيه :

« صديقى المحترم .. صدرت عن باريس وكأنها بابل ذات البرج والجسر ، وهى فى دولتها ، أو طيبة فى الزمن الاول ـ الا انها مدينة الشمس ، وباريس مدينة النور ، أو رومة مقر القياصر ومزدحم الاجناس والعناصر ، وهى فى رفعة ملكها الفاخر ، تموج بالأمم كالبحر الزاخر ،

او الاسكندرية ذات المسلة وهى فى ذروة سعدها ، واوج كمالها تغير الشمس فى سرير مجدها بجلالها وجمالها ، او بغداد فى ابان اقبالها وسلطان اقبالها واعين امرها واسعد حالها ... »

الى ان يقول :

« برحتها وهى تجر الذيل على المدائن الكبرى وتزرى بالحضارات ما حضر منها ، وما غبر . وقصدت الى رومه لعلى ارد النفس الى الخشوع ، واداوى الفؤاد من نشوة اغتراره بما راى فبلغتها واذ انا بين اثر يكاد يتكلم وحجر كان لكرامته يستلم فوقفت اتأمل ذا الجدار وذا الجدار ، وانشد ذلك القصر وتلك الدار الى أن ثار الشعر والشعر ابن أبوين :

التاريخ ، والطبيعة ، فنظمت ، وكأنى بها فى يديك تقرأ :

« احب التوفيق الى ـ ايها الاستاذ ـ اكرام العالم ، واجلال الصديق ، وأنت لى بحمد الله هذان كلاهما ، فهل تمن بقبول هدية هى الى التاريخ أدنى منها الى الشعر ؟ » .. !!

ولقد اعتز صديقه المؤرخ اسماعيل رأفت بهذه الهدية كما أعتز بها الشعر العربى ، واعتزت بها روما ذات التاريخ المجيد وذات الشرائع واصول الاحكام وربة القيادة والنظام والتى يقول فيها شوقى :

قف بروما وشاهد الأمر واشهد
ان للملك مالكا سبحانه

دولة فى الثرى وانقاض ملك
هدم الدهر فى العلا بنيانه

مزقت تاجــه الخطــوب وألقت
في التراب الذى أرى صولجانه
طلل عنــد دمنــة عند رسم
ككتاب محا البـلا عنـــوانه
ثم يصف هذا الملك الراحل وما شاهده من عظمة آثاره وبقايا مجده وفخامة بنائه ودياره الى أن يقول متسائلا واعظا :
عـــالم قلب وأحـــلام خلق
تتبــارى غبـــاوة وفطـــانة
رومة الزهو فى الشرائع والحكم
ة فى الحكم والهوى والمجانه
أين ملك فى الشرق والغرب عال
تحسد الشمس فى الضحى سلطانه
أين اشرافك الذين طغـوا فى الـ
دهر حتى أذاقهم طغيـــانه ؟
أين قاضـــيك ؟ ما أناخ عليه
أين ناديك ؟ ما دهى شيخانه ؟
قد رأينـــا عليـــك آثار حزن
ومن الدهــر ما ترى أحـــزانه

***

وذلك بعض ما نظمــه شوقى فى قصيدة « رومة » وما سجله من عظمتها وبكاه من مجدها القديم ، وقد سار شوقى على طريقته فى التغنى بأمجاد المدن والدول والشعوب فسجل الكثير منها فى أشعاره ورواياته ، وكان يحتفل كثيرا بالذكريات المجيدة وهو القائل :
من البر يا قلب أن تذكـــر
فمل بى على الغائب المندثر
ولا تأل ذكرى ولا تدخر

ثم يقول فى كتابه « أسواق الذهب » : « .. وما أنت لولا التـذكر والفكر الا كبعض القلوب اذ هى حجر ، ينفجر بالعذب ولا يعرف كيف انفجر ولا متى نبع ولا اين انحدر ، او كالارض يذهب شجر ويأتى شجر ، فلا تذكر ما غاب ولا تشعر بما حضر » !!

ولقد كان احتفال شوقى بروما فى مسرحيته « مصرع كليوباتره » بارز المكانة فى غير موقف من مواقف هـذه المسرحية !

فهذا انطونيو القائد الرومانى وصريع كليوباتره يستغفر روما ويتضرع اليها أن تحنو عليه حين يودعها ويودع الحياة فيقول :

روما حنـانك واغفرى لفتـاك
أواه منـك وآه ما أقسـاك
روما سـلام من طريد شـارد
فى الارض وطن نفسـه لهـلاك

وهذا القيصر اكتافيوس بعد نصره يفخر بالانتساب اليها ، فيقول :

وما انا الا سـيف رومة باترا
اصيب به سـيف لرومة باتر
زجرت فلم أسمع فقاتلت مكرها
وفى الحرب ان لم تروع السلم زاجر

فاذا كنا نرى تمثالا لهذا الشاعر الكبير فى عاصمة الرومان يزاح الستار عنه اعترافا بفضله ، فقد سبق له ان احتفل بها وازاح الستار عن امجادها ..



فى الأنـــدلس

قامت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ فنفت سلطة الاحتلال الانجليزية القائمة فى مصر وقتئذ أحمد شوقى الى اسبانيا ، فخرج اليها بعائلته ، وأقام بها مدة هذه الحرب . وقد غير هذا الحادث كثيرا من حياته ، بل كان أهم حادث أثر فى مجرى حياته كما حدثنى بذلك ، فقال :

« لما وقعت الحرب العالمية الاولى وشمل العالم هذا الاضطراب الشديد ، وانضمت تركيا الى الالمان ، عمدت انجلترا الى قلب نظام الحكم فى مصر ، وأعلنت انتهـاء حكم « الخديو عباس حلمى الثانى » ثم أخذت تنفى عن مصر كل من لهم صلة به فأمرتنى بالرحيل الى اسبانيا فهاجرت مع عائلتى واصطحبت مكتبتى وسائر مرافقى وغادرت مصر الى برشلونة وهى ثغر على شاطىء البحر الابيض يشبه مرسيليا فى المدنية والرقى ، ويكاد ينم عما كان فيه من سالف الحضارة العربية فى عهد الدولة الاندلسية . .

« نزلت « برشلونة » مع عائلتى ، ونزلها أيضا الامير عزيز ابراهيم ، والامير حبيب لطف الله . ولم يكن فيها

من الجالية العربية احد غيرنا فأدخلت أولادى فى بعض مدارسها الراقية ، ثم عكفت على قراءة كتب الادب العربى فى غير أوقات النزهة ، ومشاهدة السينما ، فاستوعبت منها ما لم أكن قد استوعبته ، وطالعتها كلها حتى أكاد أقول انه ليس فى الادب العربى ، كتاب لكبار الادباء لم أستوعبه فى خلال السنين الخمس التى عشتها باسبانيا !

« وقد ساعدتنى فى ذلك طبيعة الجو اللطيف الذى يشبه جو الاسكندرية وجمال المناظر التى تحاكى الاستانة فى رشاقتها ونظامها . هذا الى أخلاق الاهالى التى تميل الى الاخلاق الشرقية العربية مما جعل بينى وبينهم ألفة حسنة شعرت أثناءها بأنى بين أبناء وطن واحد ، لا سيما أن هناك من العائلات الراقية من تفتخر بأنها من أصل عربى ، وتنتسب الى بنى أمية ، ولذلك يقل شرب الخمر فى اسبانيا ، ويندر أن تقع فيها الجرائم .. !

« أما عن الديمقراطية فقد كانت سائدة جميع الطبقات ، والغنى يعطف على الفقير عطفا كبيرا ، وكان الرخاء باسبانيا أثناء الحرب الكبرى شاملا ، فلم نشتك سوء الحال الاقتصادية أثناء الحرب ، كما كان فى سائر الدول الاخرى ، ولعل اسبانيا هى الدولة الوحيدة التى « يعزم » بعض أهلها على بعض فى المطاعم

« فى هذا الجو وفى ذاك الوسط الكريم نشأت نشأة اخرى فى الادب العربى ، واستأنفت دراستى له بعناية واهتمام ، وتوفرت على رياضة الذهن فى ثمرات القرائح العربية منثورها ومنظومها فحصلت منها على ثروة لم أفز بها من قبل

« وكنت فى خلال ذلك اكتب ما يعن لى من نثر أو شعر فألفت جزءا كبيرا من « أسواق الذهب » ونظمت

ارجوزة تاريخية تبلغ اكثر من الف بيت عن دول العرب من الجاهلية الى نهاية دولة بنى العباس ..

وقد طبع هذان الاثران النفيسان . وهذا ما حدثنى به شوقى عن حياته فى اسبانيا ، أو الأندلس العربية القديمة ، أثناء نفيه فى الحرب العالمية الاولى ، وما كان للسنين التى قضاها بها من تأثير فى حياته الادبية وانتاجه الادبى العظيم ..

***

وأذكر انه لما نزل شوقى اسبانيا أثناء الحرب العالمية الاولى شعر بألم الوحدة والحرمان واشتد به الشوق الى أهله ووطنه ، وظمأ الى منهل النيل العذب نهر أرضه ومصره ، فبعث الى صديقه شاعر النيل حافظ ابراهيم بهذه الأبيات الثلاثة يعرب فيها عن ولهه وحنينه الى بلاده ، فقال :

يا ساكنى مصر انا لا نزال على
عهد الوفاء وان غبنا مقيمينا

هلا بعثتم لنا من ماء نهركمو
شيئا نبل به أحشاء صادينا

كلَّ المناهلِ بعد النيل آسنة
ما أبعد النيل الا عن أمانينا

***

فأجابه شاعر النيل بقوله :

عجبت للنيل يدرى ان بلبله
صاد ويسقى ربى مصر ويسقينا

والله ما طاب للاصحاب مورده
ولا ارتضوا بعدكم فى عيشهم لينا

لم تنأ عنه وان فارقت شـاطئه
وقد نأينا ، وان كنا مقيمينـا

***

وهذه الابيات تصور ما بين الشاعرين من عاطفـة مرهفة ومودة صادقة وما كان عند أمير الشعراء فى منفاه من شوق متوثب الى وطنه ، وقد ارسل بعد ذلك الى صديقه شيخ الشعراء « اسماعيل صبرى » يرجع شوقه وحنينه الى بلاده وقومه فى هذين البيتين :

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا
بعد الهـدوء ويهمى من مآقينـا
ترقرق المـاء فى حين السـماء وما
غاض الأسى فخضبنا الارض باكينا

***

فأثار هذان البيتان الرقيقان عاطفة شيخ الشعراء ، فأجابه بقوله :

يا وامض البرق كم نبهت من شجن
فى اضلع ذهلت عن دائهـا حينـا

فالماء فى مقـل ، والنـار فى مهج
قد حار بينهمـا امر المحبينـا
لولا تذكـر ايام لنـا سـلفت
ما بات يبكى دما فى الحى باكينـا

يا آل ودى عـودوا لا عدمتـكمو
وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينـا
يا نسمة ضمخت اذيالها سـحرا
ازهـار اندلس هبى بوادينـا
هذه العواطف الرقيقة تبودلت بين شوقى وصديقيه

وهو مقيم وقتئذ بمدينة برشلونة ، ولم يكن قد زار قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة من عواصم الاندلس العربى ، حتى اذا زار وادى الطلح باشبيلية ـ ذلك الوادى الذى كان الملك الشاعر « المعتمد بن عباد » شديد الولع به ـ أهاجته الذكريات فحن الى وطنه ومعاهده ، وانشأ قصيدته النونية التى احتذى فيها ابن زيدون فى قصيدته التى مطلعها :

اضحى التنـــائى بديلا من تدانينـــا
وناب عن طيب لقيــانا تجافينــا

***

فقال شوقى قصيدته التى مطلعها :

يا نائح الطلع اشــباه عوادينــا
نشجى لواديك ام نأسى لوادينــا

واذا كان ابن زيدون قد نزع فى قصيدته نزعة فردية ذاتية تختص بحبه لولادة بنت المستكفى بالله ، ووصف لواعجه نحوها ، فان شوقى لم ينزع هذا المنزع فى هذه القصيدة التى تبلغ ابياتها ضعف ابيات قصيدة ابن زيدون ، بل نزع نزعة وطنية قومية ووصف لواعجه فى غربته نحو بلاده ، وتغنى بنيلها وجمالها وطيب ارضها ومجدها العظيم .. !

وكذلك كانت سينية شوقى التى نظمها اثناء نفيه بالاندلس ، واحتذى فيها ، سينية البحترى فى البحر والروى ، ومطلعها :

اختلاف النهار والصبح ينسى
اذكرا لى الصبــا وايا انسى

والتى فى ابياتها الكثير من البديع الفرد كهذا البيت وهو ابلغ ما قاله شاعر فى وطنه :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

فقد وصف البحترى فى قصيدته ديوان كسرى وصفا فرديا اوتوقراطيا ، أما شوقى ، فقد وصف حنينا وطنيا الى بلاده ومجدا قوميا وحضارة ذهبية عربية فى الاندلس، ومدنية مصرية عظيمة فى مصر ، وبكى واستبكى أمام مفاخر ذلك الفردوس المفقود ، وأتى فيها بما لم يأت البحترى من معان وخيال وبلاغة ساحرة . وكذلك كان شوقى بعد اقامته فى الاندلس السنوات الاربع ، خطا خطوات كبرى فى أدبه وثقافته وشعره لم يخطها شاعر قبله ولا بعده حتى الان !!

وأذكر اننى كنت اقرأ هذه السينية الشوقية على المرحوم شاعر العرب عبد المحسن الكاظمى فى مسكنه بمصر مع ما كنت أقرؤه عليه، فسألته رايه فى السينيتين، فقال بعد ما مدح شاعرية شوقى وخصب قريحته ، ودقة حسه وسعة خياله : « .. ويكفى شوقى انه لم يلجأ الى كلمات ثقيلة على السمع فى بيت من أبياته أو غريبة الاستعمال ، كما لجأ البحترى فى مثل « القبق » و « ها » .. وهو يعنى النقد الذى وجهه أبو العلاء المعرى الى سينية البحترى فى كتابه « عبث الوليد »

***

ولا أريد هنا ان اقارن أو افاضل بين شوقى وغيره من الشعراء وانما هى ذكريات أعرضها عرضا ، ومن ذلك اننى كنت أزور شاعر النيل حافظ ابراهيم ذات يوم فجرى حديث عن شوقى وخليل مطران ، فسألته رايه فيهما وفى نفسه ، فقال :

« انى افضل شوقى ومطران على نفسى ، ولكن شوقى

يسبقنى انا ومطران ، ووالله ان لشوقى فى شعره لبدوات يعجز عنها كثير من الشعراء . ولقد قتلنى شوقى بقصيدته فى رثاء كارنارفون التى مطلعها :

فى الموت ما أعيا وفى أسـبابه
كل امرىء رهن بطى كتـابه

« وان فى هذه القصيدة لبيتين وددت لو انهما لى بكل شعرى ، وهما :

أفضى الى ختم الزمان ففضـه
وحبا الى التاريخ فى محـــرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى
فرعون بين طعــــامه وشرابه

***

« أما خليل مطران ، فأفضله على نفسى فى دقة وصفه حين يصف مصر ، فيقول :

بلدة من حيائهـــا دعة الوا
دى ومن كبريائهـــا الاهرام

« أو حين يصف الجندى التركى فى الحرب فيقول :

من كل وثاب على رمحـــه
كأنه البغتـــــة اذ ينبـــرى

***

« ولو كان مطران يعتنى باللفظ عنايته بالمعنى لسبقنا جميعا ، أما أنا فأميت المعنى اذا لم يتفق لى لفظ رائع . وأستاذنا فى ذلك والنجار « الدقى » للشاعر اسماعيل صبرى فقد كانت له أذن لا تخدعه فى الفث والسمين ، وكان يظفر بالمعنى الشارد ، واللفظ الرقيق » !

على اننى أعتقد ان شاعرية شوقى تتجاوز الحياكة اللفظية واصطياد الشوارد المعنوية التى يعنيها حافظ ،

فقد كان شوقى – كما وصفه الشيخ عبد العزيز البشرى – تجود نفسه بالشعر ، يصيب به أعلى المعانى وما أحسبه يرتصد لها ، أو يعالجها بالمطاولة والتفكير ، وقد كان هذا الشاعر يفاض عليه ساعة وحى الشعر ما لم يكن لفكره فى الحساب ، وما يتخطى إدراكه العادى ، فاذا رأيت بعد هذا شوقى ولم تستطع ان توفق بين حديثه بين الناس ، وبين شعره ، فاعلم أن هناك موهبة ، أو ما يدعونه عبقرية » .. !!

***

ولا ريب أن شوقى كان عبقريا يفخر به الادب العربى وتفخر به العروبة والاسلام وأذكر أن البحترى وفد يوما على « الخليفة المتوكل » يسمعه قصيدته التى أولها :

حسن .. يضن بحسنه
والحسن أشبه الكرم
افديه من ظلم الوشا
ة وان أساء وان ظلم

وكان البحترى شديد الاعجاب بنفسه اذا أنشد شعرا يقول للناس مالكم لا تعجبون أما حسن ما تسمعون ؟ » وكان جالسا مع ندمائه ، فلما انتهى البحترى قال له أحد الندماء مداعبا على وزنه :

من أى سلخ تلتقم وبأى كف تلتطم

ثم قال بيتا اغاظ البحترى ، وولى البحترى غاضبا ، فقال النديم فى اثره :

« وعلمت انك تنهزم » . . . . .

وحدث ان نظم محمود سامى البارودى قصيدة فى وصف « مجلس شراب » مطلعها :

املأ القـــدح واعص من نصح
وارو غلـــتى بابنـــة الفـرح

وهو وزن اخترعه البارودى ولعله من منهوك بحر المتدارك ، أو من أوزان الشعر الفارسي الذى كان يتقن لغته ، فلما أقيمت احدى حفلات الرقص بقصر عابدين نظم شوقى فى وصفها قصيدة على هذا الوزن ، مطلعها :

مـــال واحتجب وادعى الغضـــب
ليت هاجـــرى يشرح الســبب
عتبـــه رضى ليتـــه عتب

وجاء شاعر العرب عبد المحسن الكاظمى فنظم قصيدة على هذا الوزن فى سعد زغلول أثناء ثورة ١٩١٩ سماها « يقظة المنى » بداها بقوله :

انت لا جـــرم بدرنـــا الاتم
بدرنـــا الذى بدد الظـــلم
يبتســـم الضحى اينمـــا بسم

وكان حافظ ابراهيم وصديقه عبد العزيز البشرى سائرين ذات يوم على النيل ، فأخذا يداعبان قصيدة شوقى ، وينظمان شعرا فكاهيا من هذا الوزن ، احدهما ينظم شطرا ، والثانى ينظم شطرا ، حتى اتما نظم ستين بيتا ، مطلعها :

شـــال وانخبط وادعى العبـــط
ليت هاجـــرى يبلـــع الـــزلط
عتبـــه شجى حبـــه غلـــط
كلمـــا مشى خطوة ســـقط
ان امـــــره فى الهوى شطط

الى آخر المداعبة . . !

وبلغت شوقى هذه الابيات فضحك لها كثيرا ، ودعا

صديقيه الى الفداء ليأتنس بحديثهما الظريف ، فقد كان البشرى وحافظ فى أوقات فراغهما من أبلغ ظرفاء مصر ، وكان كل منهما يقدر شوقى كل التقدير

***

وكان شوقى يميل الى المداعبة والظرف ، وطالما داعب صديقه الدكتور محجوب ثابت بأبيات كثيرة لم يظفر بها صديق ولا ظريف آخر . نذكر من ذلك قصيدته فى حصانه « مكسوينى » لفرط هزاله ، وهو اسم رجل ايرلندى أضرب عن الطعام حتى مات احتجاجا على السياسة الانجليزية فى بلاده ، أو قصيدته فى براغيث عيادة الدكتور محجوب ، التى لم ينسها ، ولم ينس ما طعمته من دمه وعظامه ، أو قصيدته فى جهاد الحصان مكسوينى وجهاد سيده فى الحركة الوطنية .. !!

وقد حدث أن وقع خلاف بين الدكتور محجوب والاستاذ سليمان فوزى صاحب « مجلة الكشكول » وأخذ الاستاذ سليمان يهاجم فى مجلته الدكتور محجوب ويرسمه رسوما هزلية ، فاذا التقيا فى المساء فى « محل صولت » حيث كان شوقى يقضى سمره كل ليلة ، حاول شوقى أن يصلح بينهما ، فيثور الدكتور محجوب لذلك ويقول « بقى يشتمنى فى زفة ويصالحنى فى عطفه »

وكان من لوازم الدكتور محجوب استعمال القافات فى كلامه ، واطلاق كلمة « العيهور » على كل معاكس أو مخاصم له واستعمال « يمينا » فى كل مسألة يقسم عليها فنظم شوقى أبياتا طريفة فى ذلك على لسان الدكتور حرص فيها على لوازمه المأثورة فقال :

يمينا بالطلاق وبالعتاق
وبالدنيا المعلقمة المذاق

وكل فقـــارة فى ظهر مكسى (١)
بصحراء الامام وعظم ســـاق

وتربتـــه وكل الخـــير فيهـــا
ونســـبته الشريفـــة للبـــراق

وبالخطب الطوال وما حـــوته
وان لم يبـــق فى الاذهان باق

أيشتمنى ســـليمان بن فوزى
وبيبى فى يدى ومعى طباقى (٢)

أنا الطيـــار رجل فى دمشـــق
اذا اشتدت ورجل فى العـــراق

أنا الاسد الغضنفر بيـــد أنى
تســـيرنى الجـــآذر فى الرياق

ألا طـــز على العيهـــور طـــز
وان أبدى مجـــاملة الرفاق

بقـــارعة الطريق ينـــال منى
ويوســـعنى عنـــاقا فى الزقاق

أمور يضحك الســـعداء منهـــا
ويبكى البلشفى والاشتراقى (٣)

ولقد طالما داعب صـــديقه الدكتـــور محجوب ثابت بقصائد فكاهية ، تارة فى سيارته القديمة ، وأخرى فى براغيث عيادته . وفى مكسوينى الحصان المجاهد الذى يزعم شوقى أنه اشترك مع الدكتور محجوب فى جهاده الوطنى سنة ١٩١٩ وفى ذلك يقول من قصيدة فكاهية :

---

(١) مكسى : حصانه المكسوينى
(٢) طباقى : دخانى
(٣) الاشتراقى « بالقـــاف » المحجوبية : اى الاشتراكى

تفديك يا « مكس » الجياد الصلادم
وتفدى الأساة النطس من انت خادم

كأنك ان حاربت فوقك عنتر
وتحت ابن سينا انت حين تسالم

سنجرى التماثيل التى ليس مثلها
اذا جاء يوم فيه تجزى البهائم

فانك شمس والجياد كواكب
وأنك دينار ، وهن الدراهم

وكم تدعى السودان يا مكس هازلا
وما أنت مسود ولا انت قاتم

***

ويقول شوقى فى براغيث عيادة الدكتور محجوب التى طالما شقت خراطيمها جوارب زواره ونفذت الى لحومهم وعظامهم ، تطعم منها فى قسوة وشره :

براغيث محجوب (١) لم أنسها
ولم أنس ما طعمت من دمى

تشق خراطيمها جوربى
وتنفذ فى اللحم والاعظم

وكنت اذا الصيف جاء احتجم
ت فراح الخريف ولم احجم

ترحب بالضيف فوق الطري
ق فباب العيادة فالسلم

قد انتشرت جوقة جوقة
كما رشت الارض بالسمسم

(١) ممنوع الصرف لضرورة الوزن

بواكير تطلع قبـــل الشـــتا

ء وترفـــع الوية الموســـم

وتبصرها حول « بيب » الرئيـ

ـس وفى شـــاربيه وحول الفم

وبين حفـــائر أســـنانه

مـــع الســـوس فى طلب المطعم

ثم يقول فى سيارته القديمة التى اشتراها بعد وفاة مكسوينى :

له فى الحى سيـــاره حديث الجار والجاره

اذا حركهـــا مالت على الجنبين منهاره

وقد تحرن أحيـــانا وتمشى وحدها تاره

ولا تشـــبعها عين من البنزين فواره

ترى الشـــارع فى ذعر اذا لاحت من الحاره





الباب الثانى

حافظ إبراهيم

شاعر النيل فى سطور

• ولد حافظ ابراهيم فى عام ١٨٦٩م ، على الارجح ، بدليل قوله فى قصيدته التى أنشدها فى حفل الجامعة الامريكية ببيروت فى يونيو عام ١٩٢٩ :

وقد وقفت على الستين أسألها
أسوفت أم أعدت حر أكفانى

ولو كان ولد عام ١٨٧٢ ــ كما قيل ــ لكان عمره وقتئذ ٥٧ عاما لا ستين كما يقول

• دخل المدرسة الحربية، ودرس فيها مجانا ، وتخرج منها برتبة ملازم ثان ، وسافر الى السودان ..

• كان يميل منذ نشأته الى الادب ومطالعة الشعر، وحفظ القديم من الأدب نثرا أو شعرا ..

• قال كثيرا فى كراهية المحتلين، ومعاملتهم للمصريين، واغتصابهم لحقوق مصر ، وظلمهم وجفوة رؤسائهم

• اشترك فى ثورة الضباط المصريين التى تلت حرب الترنسفال ، فحوكم مع زملائه بتهمة التآمر، واحيل الى المعاش ، ورجع الى مصر ..

• لجأ حافظ الى الادب ، فترجم جزءا من رواية

« البؤساء » لفيكتور هوجو ، وصدرها باهداء بليغ للشيخ محمد عبده ..

• كان قد اتصل بالشيخ محمد عبده عن طريق الادب قبيل رجوعه من السودان ، فأخذ يشجعه ويساعده ، بعد رجوعه الى ان توفى الاستاذ الامام ..

• بعد وفاة الامام اشتد به اليأس ، فوضع كتاب « ليالى سطيح » ونشره عام ١٩٠٦ م ..

• ترجم كتابا فى الاقتصاد السياسى مع صديقه خليل مطران عن الفرنسية ..

• عين رئيسا للقسم الادبى بدار الكتب المصرية فى عام ١٩١١ م فى عهد أحمد حشمت باشا وزير المعارف ..

• اشترك فى ثورة عام ١٩١٩ م ، بقصائده الوطنية الثائرة ، وقال فيها ما قوى عزائم الأمة ..

• كان يحب الموسيقى ، ويتعشق سماعها ، وكان يميل الى الغناء البدوى ..

• توفى حافظ ابراهيم فى ٢١ يوليو عام ١٩٣٢ م قبل ان يتوفى أحمد شوقى بنحو شهرين ونصف ، ورثاه احمد شوقى بقصيدته المشهورة التى قال فى مطلعها :

قد كنت أوثر ان تقول رثائى
يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة
قدر ، وكل منية بقضاء



الأديب الثائر

نشـــأ حافظ ابراهيم يتيما فقيرا كما نشأ كثير من الافذاذ والنبغاء ، فرباه خاله وأدخله احـدى المدارس الابتدائية ، فبقى بها الى أن حصـــل على شهادتها ثم التحق بالمدرسة الحربية . وكان مســموحا وقتئـذ لحاملى الشهادة الابتدائيـــة أن يلتحقوا بها ، فأتم بها دراسته مجانا وخرج منها برتبة « ملازم ثان » فأرسل الى السودان وكان على الرغم من هذه التربية العسكرية ميالا بطبعه الى الأدب ، يؤثر الحياة الادبية الشاعرة على خشونة الحياة العسكرية وما تكلفه من عنت واجهاد ، ويود أن يحمل قيثارته كشاعر يتغنى بالفضيلة ويستنهض الهمم الى السعى فى طلب المجد ..

فقد كان منذ صباه ثائر النفس ، شـــديد الرغبة فى مطالعة الشعر مولعا باستظهار الآثار الادبية لكبار الادباء ، ولا سيما الاشعار الحماسية ، وكان يحس بملكة الشعر تنمو فى نفســـه وتملك عليه مسالك تفكيره ، فأراد أن يتخذ منها طريقه الى المعالى ويعقد عليها جميع ما يجول بنفسه من آمال وأحلام . وقد هيـــأت الظروف التى تحيط به ان تبرز هذه الملكة ، وان تأخذ حظا عظيما من

التربية الادبية الى جانب تلك التربيــة العسكرية التى أمضى فيها بضع سنوات ..

فقد شهد فى صباه وشبابه نهضة شعرية على جانب كبير من السمو ، يحمل لواءها المرحوم محمود سـامى البارودى الوزير الخطير والشاعر الفارس ، فكان جديرا بحافظ المولع بالادب أن يكون له من هذه النهضة نصيب يساعده فى مستقبل أيامه ، وأن يجد منها مشجعا على تربية ملكته وتغذية قريحته ، وأن ينظر الى الشعر نظرة كبيرة تجعله يعقد عليه آماله فى بلوغ مطامعه من المجد وعلو المكانة ، خصوصا انه رأى قائد هـذه النهضة من رجال السيف والقلم العظام الذين سـموا الى رتبـة الوزارة وأصبحت لهم شهرة رائعة فى الميدانين : ميدان الادب ، وميدان الحرب .. فالتحق بالمدرسة الحربية وهو يواصل التربية الادبية مع الدراسـة العسكرية ، ليدافع بسيفه وقلمه عن بلاده التى ترزح تحت سـيطرة الانجليز ، وتشكو من الاحتلال البريطانى ..

وكانت مصر وقتئذ فى ثورة نفسية ضـــد الاحتلال البريطانى الذى سيطر عليها منذ عام ١٨٨٢ ، وأبعـد زعماءها ، قواد الثورة العرابية ، ثم ظهر زعيم شـاب أهاب بالأمة المصرية أن تدافع عن عزتهـا ، وتحـمى كرامتها . ولفت هذا الزعيم نظر حافظ ابراهيم فأصاب من نفسه الثائرة ، وعاطفته المتـوقدة ما شجعه على مساعدته ضد المحتلين ، والثورة عليهم فى السودان ، حتى كان هناك من أوائل المتهمين فى فتنة الجيش المصرى

وقد قدمنـا ان حافظا كان ثائر النفس ميالا بطبعه الى الادب نزوعا الى الاشعار الحماسية . وطالما تبرم من حياة الجندية فى عهد الاحتلال ، خصوصا بعدما خابت

آماله واتضح له انها لن تكون له كما كان يريد طريقا الى بلوغ مآربه . ويظهر هذا التبرم بوضـوح من تلك القصائد التى بعث بها من السودان الى بعض أصدقائه ، ومنها هـذه القصيدة التى يذكر فيها حيـاة النعيم ويتشوق اليها ، فيقول :

سلام الله يا عهـد التصـابى
عليـك وفتيـة العهـد القديم
أحس لهم ودونهم فـلاة
كأن فسيحها صدر الحليم

ثم يقول فى حزن وأسى :

فمن لى أن أرى تلك المغـانى
وفيهـا من الحسـن القـديم
ولـكنى مقيـدة رحـالى
بقيـد العـدم فى وادى الهموم

فنرى انه فى هذه الابيات وفى كثير غيرها مما قاله فى السودان يتبرم من حياته ويتشوق الى حياة أخرى تكون الين جانبا واخف عبئا مما يلائم نفس شاعر مثله ، فقد كلف نفسه ما لاتريد سعيا وراء الرزق وطلبا للمجد ، ثم آب بالخسـار وبدا له فى آخر الأمر انه كان واهما حين اتخذ الجندية وسـيلة لتحقيق مطامعه من المجد والرفعة ..

كان حافظ يتبرم اذن من حياة الجندية تحت سيطرة الانجليز خصوصا بعد ما رأى فيها من خيبة الأمل ما رأى وبعد ما شـهد فيها من تأخر المصرى واستطالة الانجليزى عليه ..

وقد وصف بقلمه هـذه الحال فى الجيش المصرى ، فقال :

« شكا ضابط مصرى الى كبيره وهو يحاوره من سوء العيش وجفوة الرؤساء وكثرة الاتعاب وقلة الاعطيـة : فأجابه الانجليزى ، وقد أمال سالفته تيها وثنى عطفه كبرا : اذا أصبح السردار وقد أراد أن يملأ غرف المدرسة الحربية وفناءها من التلاميذ ، الا تتم له تلك الارادة ؟»

فقال المصرى : « بلى ، فلا يكلفه ذلك غير النشر فى احدى الصحف حتى تتواقع التلاميـذ على بابها تواقع القطا على المنهل العذب » ..

فقال الانجليزى : « لهـذا أنتم فيما أنتم فيه من البلاء ، فهو ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » ! !..

ولذلك تكسرت فى المصرى الأظـافر وبات مهضـوم الجانب غير مرعى الجناب ، يعتـوره الذل والخور ، وتأخذه سـوء القالة ، وهو كأنه العمر كلما مر به يوم لحق به النقص ..

ينظر المصرى الى الانجليـزى وهو كأنه ينظر اليـه بالنظارة المعظمة ، فيكبره رهبة واجلالا ويتضـعضع لرؤيته. وينظر اليه الانجليزى بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافا بشأنه ، وهو ان خاطبه .. خاطبه بلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق، أو باشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر ..

وهذا شأن القوم مع الصغار من الضباط ، أما الكبار منهم ــ كبار الرتب والأجسـام ، لا كبار النفوس والأحلام ــ فحالهم الى الرحمة أدعى منهم الى اللوم ؛ فلقد سقاهم ساقى السياسـة الانجليزية كؤوسا من منقوع الرعب ، فاذا نظر احدهم بعض كبار القوم أو «صغارهم» وقف امامه وقفة الجواد وقد رأى الليث..

ثم يصف حافظ بعد ذلك مايلقاه الجندى الانجليزى

من الحظوة اذا انتظم فى سلك الجيش المصرى فيقول :
« يهبط أحدهم مصر ، فما هو الا أن يشم نسيمها حتى يقابله الأمر بمنصب فى جيشـــها .. » ثم يستطرد الى ذكر ما عليه الانجليزى من النعيم سواء أكان ضابطا أم جنديا فى حين ان المصرى فى شقاوة من العيش وفى ذل من الرؤساء ، ويقول فى ذلك : « ومن لم ير نعيم الدنيا أو يرزق عيش الترف ، فليقـــدم الى الجيش وينظر الانجليزى فى لين عيشـــه ورخاء باله بين مبتسم زمانه وعز سلطانه اذا صاح ابتدرته الألوف ، واذا مشى قامت اجلالا له الصفوف .. »

ويذكر بعد ذلك حافظ من مساوىء الجيش المصرى فى السودان ما لاترضى به النفوس الأبية التى طبعت على العزة والحرية وأبت الخضوع للذل والاستكانة للهوان..

وقد كانت نفس حافظ من هذه النفوس التى تنفر من الذل وتبغض الظلم وتثور عليه ، فلا عجب اذا كان كلما طال مقامه فى الجيش زادت بغضته للانجليز واشتدت حفيظته عليهم ، وقد أحسوا منه هذه البغضة ، وتلك الحفيظة بما كان يصلهم عنه من الواشين والدســاسين وصنـــائع الانجليز . حتى اذا كانت ثورة الجيش فى السودان التى تلت حرب الترنسفال عام ١٨٩٩ ، اتهم حافظ فيمن اتهموا من الضباط بتهمة التآمر ، وارسلوا الى قلعـــة الجبل ليحاكموا فيهـــا ، وكاد يحكم عليهم بالاعدام لولا شفاعة الخديو السابق ، فاكتفى باحالتهم الى المعاش وارسلوا الى مصر ..

محام فى الجيش المصرى :

وقد كان معروفا بين زملائه بالفصـــاحة وحســـن البيان ؛ ولذلك كانوا ينـــدبونه للدفاع عن بعضهم اذا

حدث منه ما يقتضي محاكمته أمام « مجلس الجيش » . وكان هذا المجلس يتألف من رئيس انجليزى أو مصرى حسب الظروف وسبعة اعضاء من الضباط المصريين والانجليز، وبجانبهم عضو يسمى نائب الأحكام العسكرية ومهمته ارشاد المجلس الى طريق الحق . وغاية همه مصلحة المتهم . فكأنه محام آخر الى جانب محامي المتهم ، وهناك المدعى العمومى ، وهو الضابط الذى يرفع القضية على المتهم ..

وقد حدثنى رحمه الله وأنا أزوره ذات يوم بداره بالجيزة عن دفاعه أمام هذا المجلس فأخبرنى انه دافع فى عدة قضايا عسكرية تبلغ العشرين حكم فيها كلها بالبراءة ما عدا قضية واحدة كان القتل هو التهمة المنسوبة الى المتهم ، وقد اعترف بجريمته مرارا ولم يبق من وسيلة لتبرئته ! ..

ومن أهم هذه القضايا التى دافع فيها رحمه الله كمحام للمتهم قضية اتهم فيها ثلاثة ضباط حصلوا من قيادة الجيش على اجازة مرضية ، وأقاموا لذلك فى المستشفى ويظهر أنهم كانوا بحالة صحية لا تستدعى الانقطاع عن الخدمة العسكرية ، وقد احتجوا بهذه الاجازة وصاروا يخرجون من المستشفى ليلا ، بطريقة لا يعلمها الحكيمباشى ، ويمكثون خارجه الى الفجر ، ثم يعودون الى أسرتهم متظاهرين بالمرض . فاذا جاء الطبيب وجد وجوههم مصفرة وقواهم خائرة وبنيتهم ضعيفة فيظنهم بهذه الأعراض مرضى . وقد مكثوا على تلك الحال ثلاثين يوما ! ..

وذات ليلة طاف الحكيمباشى بحجر المرضى فوجد أسرة الضباط الثلاثة خالية ، فأخذ بذلك مذكرة رفعها

للمدعى العمومى الذى قدمهم الى مجلس الجيش. فلما كانت الجلسة وقف حافظ ابراهيم للدفاع عنهم ، فبدأ كلامه بأن هؤلاء الضبـاط تغيبوا عن المستشفى ثلاثين ليلة ــ لا ليلة واحدة كما يدعى الحكيمباشى .. فدهش القاضى من ذلك وعجب كيف ان المحكمة تتهم الضبـاط بالتغيب ليلة واحدة ، ثم يأتى محاميهم فيقرر أنهم تغيبوا ثلاثين ليلة !..

ولكن زالت دهشتهم حينما علموا ان حافظ ابراهيم انما اتخذ ذلك وسيلة للدفاع عن المتهمين ، فقد طلب من المحكمة أن تراجع التقرير اليومى للمستشفى عن المرضى الحاضرين والمتغيبين . فلما راجعته وجدت ان الضباط لم يتغيبوا ليلة واحدة . وعندئذ قال حافظ : « ان التقرير اليومى للمستشفى يثبت وجودهم فى الليلة التى يدعى حضرة الحكيمباشى تغيبهم فيها ، واذن فاما ان يكون نظام المستشفى فوضى ، واما أن يكون الحكيمباشى أعطاهم اذنا شفويا بالخروج فى تلك الليلة ، ولكن حضرته نسى ، فوضع الحكيمباشى فى ورطة من هذا الدفاع .. واضطر أن يقول انه قد تذكر انه أعطى لهؤلاء الضباط اذنا شفويا بالخروج ، ولكنه نسى ذلك ، فحكمت المحكمة ببراءة المتهمين ! ..

وقد حدثنا رحمه الله عن غير هذه القضية بما يشهد له بذكائه وحدة ذهنه ، واستعداده فى الدفاع ..

ومما يذكر عن حياته فى الجيش انه كان معروفا باعجابه بكل جميل سواء أكان انسانا أم غير انسان . وقد بقى هذا الاعجاب عنده طول حياته . وحدث انه ، وهو ضابط فى التعيينات دخل عليه ضابط من زملائه جميل الصورة ، فاتن الطلعة ، فلم يملك نفسه حتى

أمر جنديا من جنوده بأن « يرش » أمامه صفيحة من السمن ، وقد حدثنا بذلك أقرب أصدقائه اليه ، ولذلك كان من المعروف عنه بين أصدقائه انه اذا رأى شابا جميلا قال عنه :

« ان ذلك ممن يرش أمامهم السمن » ! ..

وقد قال فى هذا الصدد وهو ضابط فى الجيش هذين البيتين اللذين يصف بهما ضابطا مليح الصورة :

ومن عجب أن قلدوك مهندا
وفى كل لحظ منك سيف مهند
اذا أنت قد جردته أو غمدته
قتلت به ، واللحظ لا يتعمد

بعد رجوعه من السودان :

عاد « حافظ » الى مصر كاسف البال مكمودا ، لأنه كان يريد أن يعود اليها كما يعود المعذب بنار الجحيم الى جنة النعيم ، وأن يرد اليها « رد الشمس قطرة المزن الى أصلها ، ورد الوفى الأمانات الى أهلها » كما قال فى كتابه الذى بعث به الى الشيخ محمد عبده يستنجزه وعده بأن يتوسط له فى العودة من السودان ..

وقد عاد اليها والخيبة تحدوه ، وشقاء العيش يستقبله ، فكان حقيقا بأن يجزع من هذا الشقاء ، وأن يضيق صدره وتثور نفسه على هذه الحياة المملوءة بالخيبة والوبال فتنطلق بتلك القصيدة الخالدة التى هى من خير ما رسمته قريحة شاعر بائس امتلكه اليأس فاستعذب الموت مودعا الحياة وداعا مؤثرا يتعزى فيه عن آماله ويرثى بها نفسه ، قال :

سعيت الى أن كدت أنتعل الدما
وعدت وما أعقبت الا التندما

لحا الله عهد القاسطين الذى به
تهدم من بنيانـنا ما تهدما
اذا شئت أن تلقى السعادة بينهم
فلا تك مصريا ، ولا تك مسلما

سلام على الدنيا سلام مودع
رأى فى ظلام القبر أنسا ومغنما

الى آخر هذه القصيدة المنشورة فى ديوانه ، وهى غرة من غرر الشعر فى باب « الشكوى » ..

ماذا عسى أن يفعل حافظ بعد ما نبذه الانجليز ونفوه الى مصر ؟.. هل يثور عليهم وعلى الحكومة المصرية التى وافقتهم على احالته الى المعاش وهو كسير الجناح فقير لا يجد ما ينهض بحاجاته ؟ ..

لقد تذرع بالصبر ، والصبر يضنيه فى هذه الحالة المؤلمة عسى أن تعطف الحكومة عليه فترده الى ظلها حيث يجد رزقه ويأمن عادية الفقر . وقد نال من ذلك بعض المآرب . فأعيد الى الحكومة ضابطا فى البوليس ولكنه ما لبث غير قليل ثم خرج منها ، وعاد يشكو الزمان وأهله ويندب حظه فيقول :

انى احتسبت زمانا بت انفقه
وعزمة شابت الدنيا ولم تشب

كم همت فى البيد والآرام قائلة
والشمس ترمى اديم الأرض باللهب

لكننى غير مجدود وما فتئت
يد المقادير تقصينى عن الأرب

وقد غدوت وآمالى مطرحة
وفى اموري ما للضب فى الذنب

فان تكن نسـبتى للشـرق مانعتى
حظا فواها لمجد الترك والعـرب

واذا كان اليـأس قد امتلك حافظا ، فسـد أمامه الأبواب ، الا ان بارقـة الأمل كانت تحدوه من طريق الشعر الذى اشتهر به وأصبح له بسببه حظوة عند كبار الحكام . ولكن بعض رجال الأدب الواصلين لهؤلاء الحكام يعلمون ما لحافظ من البراعة والمقـدرة فى نظم الشعر، فيخشون منه على مكانتهم ، ويخافون مزاحمته اياهم فيحولون بينه وبين النفاد من هذا الباب . فيعف هو عنه ، ويولى وجهه نحو حامى الدين وامام المصلحين « الشيخ محمد عبده » عسى أن يأخذ بيده ، فيجد من تشجيع الامام ما يطلق قريحته بالشعر الفياض فى كل فن من فنونه وينشط فى هـذا الوقت الى خدمة النثر فيترجم رواية « البؤساء » لفيكتور هوجو ، ويصدرها باهـداء رقيق الى الاسـتاذ الامام .. حتى اذا مات الامام تحطمت آماله وأصبح يخشى أن تطول حيـاته لشدة ما أصابه من اليأس بفقده كما قال فى رثائه :

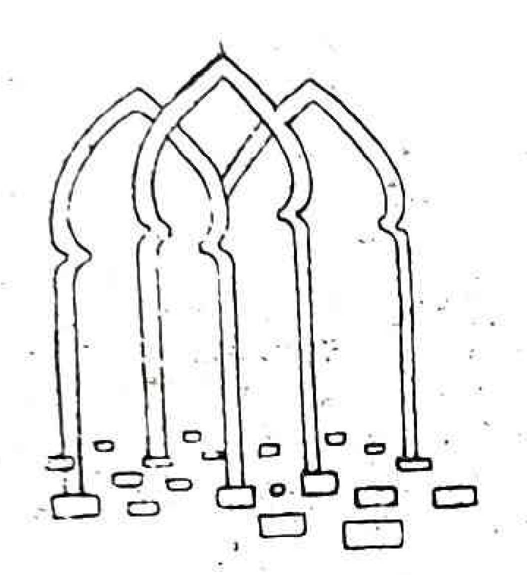
سـلام على الاسـلام بعـد محمـد
سـلام على أيامه النضرات

على الدين والدنيا ، على العلم والحجا
على البر والتقوى ، على الحسنات

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حيـاتى

وبعد أبيات وصف فيها اصلاحه ومناقبه الجليلة ، أشار الى مرضه الذى توفى به وفزع الشرق والمسلمين لموته ، فقال :

رمى السرطان الليث ، والليث خادر
ورب ضعيف نافذ الرميات
فأودى به ختلا ، فمال الى الثرى
ومالت له الاجرام منحرفات
بكى الشرق ، فارتجت له الأرض رجة
وضاقت عيون الكون بالعبرات
بكى عالم الاسلام عالم عصره
سراج الدياجى هادم الشبهات



حافظ .. والأستاذ الإمام

عرف شاعر النيل الاستاذ الامام محمد عبده منذ كان ضابطا فى السودان . وقد اتصل به فى زيارته لربوع القطر الشقيق ، ودامت صلته به بعد عودته الى مصر ، واستمرت الى أن توفى الامام فى يوليو عام ١٩٠٥ م . وكان يبعث اليه شاكيا من الانجليز ومؤملا أن يساعده فى العودة الى مصر هربا من ظلم الاستعمار وفساد المستعمرين . وقد أرسل حافظ اليه كتابين من السودان يشكو فيهما حاله ، وقد نسجهما على طريقة القدماء كبديع الزمان الهمزانى فى مقاماته ، وابن زيدون فى رسائله ، والأديب أبى محمد القاسم بن على بن عثمان الحريرى البصرى فى مقاماته المعروفة بمقامات الحريرى ، وقال فى أحد هذين الكتابين :

« كتابى الى سيدى ، وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل ، ومن تيهى به فوق النثرة (١) والاكليل ، وقد تعجلت السرور ، وتسلفت الحبور ، وقطعت ما بينى وبين النوائب ..

---

(١) النثرة : اسم كوكب يسمى « نثرة الاسد » والاكليل منزل من منازل القمر

وبشرت أهلى بالذى قد سمعته
فما محنتى الا ليـــال قلائـــل
وقلت لهم : للشيخ فينا مشيئة
فليس لنـــا من دهرنا ما نـــازل

« وجمعت فيه بين ثقة الزبيدى (١) بالصمصامة ، والحارث (٢) بالنعامة ، فلم أقل ما قال الهذلى لصاحبه حين نسى وعده وحجب رفده :

« يا دار عائكة التى أتعزل » (٣)

« بل أناديه نداء الاخيذة (٤) فى عمورية شجاع الدولة العباسية ، وأمد صوتى بذكر احسانه مد المؤذن صوته فى أذانه ، واعتمد عليه فى البعد والقرب اعتمـــاد الملاح على نجمة القطب :

وقال أصـــيحابى وقد هالنى النوى
وهالهم أمرى متى أنت قافل ؟..
فقلت اذا شـــاء الامام ، فأوبتى
قريب ، وربعى بالســـعادة آهل »

الى آخر هـــذا الكتاب الذى يستعطف فيه الشيخ محمد عبده ويستنجزه وعده ، وقد ختمه بقوله : «.. وانى أهديك سلاما لو امتزج بالسحاب ، واختلط منه باللعاب ، لأصبحت تتهادى بفطرة الأكاسرة ، وامست تدخر منه الرهبان فى الأديرة ، ولأغنى ذات الحجاب ، عن الغالية (٥) والملاب ..

« ولا بدع اذا جاء السـيد بالرد ، فقد يرى وجه

---

(١) هو عمرو بن معدى كـــرب الزبيدى والصمصامة سيفه
(٢) هو ابن عبـــاد التغلبى ، والنعامة فرسه
(٣) راجع ديوان حافظ ابراهيم الجزء الثانى صفحة ١٢٦ ـ ٢٥٦
(٤) راجع جـ ٢ صفحة ١٢٧ من ديوان حافظ
(٥) الغاليـــة نوع من الطيب ، والملاب كل عطر سائل

المليك فى المرآة ، وخيال القمر فى الاضـاه ، وان حال حائل دون أمنية هذا السائل ، فهو لايذم يومك ، ولا ييأس من غدك ، فأنت خير ما تكون حين لا تظن نفس بنفس خيرا ، والسلام » .. !

وقد وفى الاستاذ بالعمل لعودة حافظ ابراهيم ، ولكن الظروف لم تساعده حتى اذا كانت ثورة الضباط المصريين فى السودان عام ١٨٩٩ ، واتهم فيها حافظ بين المتهمين أعيد الى مصر مرفوتا من الجيش بعد اعفائه وزملائه من الحكم عليه بالسودان ..

ولما عاد الى مصر ازدادت صلته توثقا بالاستاذ الامام، وكان يجالسه كثيرا فى دروسه وفى حياته الاجتماعية ، ويزوره فى مكتبه وداره بعين شمس ، حتى اذا مات الامام رثاه بمرثيته الشهيرة التى بدأها بقوله :

« سلام على الاسلام بعد محمد
سلام على أيامه النضرات »

ولعلها أبلغ مرثية رثى بها شاعر فى ذلك الحين فقيد مصر والعروبة والاسلام ، لأنها فضلا عن جزالة أسلوبها ، وفصاحة بيانها ، كانت صادرة من قلبه ، خالصة من وجدانه .. !

وقد كنت ازوره يوما فى نحو عام ١٩٣٠ ، بعد وفاة الامام بخمسة وعشرين عاما ، وكان يقطن فى ذلك الوقت منزلا صغيرا فى الجيزة قائما على جدول صغير يجرى بين الدساكر القريبة من طريق الاهرام ، فجاء حديث الاستاذ الامام ، فأخذ يحدثنى عنه فى تقدير واعجاب قائلا :

« كان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده من خير من انبتت مصر من الرجال العظماء ، تشهد بذلك آثاره

الخالدة فى الصحائف والقلوب ، وتنطق بفضله أخباره التى مـــلأت الشرق وفاضت حتى امتـــدت الى أرقى الشعوب ..

« فاذا رجعت الى ما ألف من كتب أو دبجت يراعته من مقالات بليغة على صفحات الجرائد ، أو الى ما بذل من جهد فى سبيل الشرق ــ رأيت رجلا نادرا ، ونابغة قلما تجود بمثله الأيام . ويكفيـــه فخرا تلك الـكلمة الخالدة التى قالها فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الافغانى حين خرج من مصر : « أخـــرج الآن من مصر وأترك لها الشيخ محمد عبده » ..

ولست أريد أن أشرح فضل الامام وآثاره المشهورة ، فهى جلية واضحة للعيان ، غير اننى أروى لك من مآثره ونوادره ما لايعلمه الا أخصـــاؤه ممن عاشروه ولازموه مدة واطلعوا على ما لم يطلع عليه الـكثيرون ..

***

ومن ذلك ما حدث فى عهد اللورد كرومر ، حين رأى فساد النيابة وعدم صلاح بعض أفرادها لأداء مهمتهم ، فقد صمم اللورد على الغائها وقدم بذلك مشروعا الى مجلس النظار ، فاتصل الخبر بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، فما لبث أن أسرع اليه وجلس معه ساعتين اقنعه فيهما بالعدول عن هذا المشروع ووجوب اصـــلاح ما فسد من النيابة بدلا من الغـــائها . وعلى اثر ذلك سحب المشروع من مجلس النظار ..

ومن آثاره التى تدل على اخلاصـــه للناس وحسن نجدته لهم فى الملمات ما قام به من « جمع ١٢ الف جنيه لمنكوبى حريق ميت غمر » فقد طاف القرى والبلدان ثلاثين يوما هو وبعض صحبه يجمعـــون الاعانات لهؤلاء

المساكين ، وحدث فى خلال ذلك ان نزل فى احدى القرى على وجيه يدعى « عثمان سليط » فأضافه هو ومن معه وباتوا نيلتهم فى منزله . وكان من عادة الامام رحمه الله أن يستيقظ فى الثلث الاخير من الليل فيقوم ويتوضأ ثم يتهجد حتى يطلع الفجر فيصلى صلاة الصبح ثم ينام حتى تطلع الشمس وعندئذ يقوم فيغسـل وجهه ثم يجلس لتناول الفطور مع أصحابه . وكانت هذه العادة مطعنا لبعض أعدائه الذين لا يقفون على مكنون أحواله ويرمونه بعدم اقامة الصلاة ، وصادف فى تلك الليلة التى نزلها عند « عثمان سليط » أن استيقظ هذا الرجل قبل الفجر فوجد « الشيخ » منهمكا فى صلاته بخشوع وخوف أمام الله حتى طلع الفجر، ثم أوى الى مضجعه ، ولما أقبل الصباح قام فغسل وجهه كعادته أمام الناس ، فقال له عثمان : « كافأك الله يا أستاذ » .. لقد تركتنى اظن فيك الاثم طول هذه المدة حتى اطلعت الليلة على ما خفى على كثيرين من أمر صلاحك وتقواك .. وجعل عثمان يلومه والاستاذ الامام ينظر اليه ضاحكا

قال حافظ :

« وحدث أن كان يجتمع فى منزل سعادة احمد باشا تيمور لفيف من العلماء والادباء ، وكان بعضهم يكره الاستاذ الامام وينتهز الفرصة للطعن فيه ورميه بترك الصلاة فيغضب لذلك احمد باشا تيمور ويدافع عنه ويدحض أقوالهم الكاذبة . وقد كان عنده خادم عجوز يقيم فى خدمته ستة اشهر ، ثم ينتقل الى منزل على بك رفاعة فيمكث فيه لخدمته أيضا ستة اشهر ، وهكذا دواليك ..

وذات يوم كان تيمور باشا جالسا الى هذا اللفيف

من العلماء فدخل عليهم هذا الخــادم العجوز على غير انتظار ، فدهش لذلك تيمور باشا وقال له : « وماذا أتى بك من منزل رفاعة بك على غير ميعاد ؟ » فأجابه الخادم غاضبا : « نزل ياسيدى على رفاعة بك منذ أيام ضيف اسمه الشيخ محمد عبده ، فكان يقوم من منتصف الليل فيوقظنى ويأمرنى باحضار الماء اليه وبعض المرافق ثم يقف يصلى حتى يطلع الفجر ، فكنت مضطرا الى اليقظة طول الوقت حتى ضقت بذلك ذرعا واخترت أن اترك له المنزل » فقال تيمور باشا لمن حوله : « الحمد لله الذى أظهر لكم حقيقة الرجل الذى تخوضون فى شأنه بغير الحق .. والله انى لم أقابل هذا الخادم منذ ذهب الى منزل رفاعة بك الا الآن » . ثم طلب ممن كانوا يطعنون فى الامام أن يستغفروا ويتوبوا الى الله ففعلوا

***

ولما انجلت الثورة العرابية بانهزام العرابيين والقبض على زعمائهم ونفيهم أو سجنهم كان الشيخ محمد عبده ممن سجن ونفى الى الشــام . وفى خلال ذلك كان هناك عالم شامى يبغضه ويطعن فى علمه وكفايتــه . وكان رحمه الله يرى ذلك ويتغاضى عنه تغاضى الكريم . وبعد أن عفى عنه وعاد الى مصر اصــدر رسالة التوحيـد المشهورة فكانت لها رنة استحسان كبير بين العلماء ، وانتشرت فى سائر انحاء البلاد الاسلامية . فلما اطلع عليها ذلك العالم المتقدم الذكر اعجب بها اعجابا عظيما وأرسل الى الامام يعتذر اليه ويستسمحه فيما بدر منه من بغض وطعن ، فرد عليه الاستاذ بقوله : « الحمد لله حينما ابغضتنى ، ابغضتنى فى الله .. وحينما احببتنى ، احببتنى فى الله » ..

قال حافظ :

ـ وعلى ذكر حاسديه الذين كانوا يرمونه بما ليس فيه اقول انه حينما كان مستشارا مع الفقيد العظيم سعد باشا زغلول ، وقاسم بك امين ـ وهما من خيرة من انجبت مصر ـ كان بعض الأفاكين يرمونهم بالرشوة ، وذات يوم جلست اليه فى فناء منزله فدار الحديث حول كذب تلك الطائفة فقال رحمه الله : « والله ياحافظ لو كنت أقبل الرشوة لسال هـذا الفناء ذهبا » وقد صدق رحمه الله فانه لم يخلف شيئا لأهله مع ما كان له من مرتب كبير . وليس ذلك لنزاهته وترفعه عن الرشوة فقط ، بل لانه كان كريم النفس يفرق جميع مرتباته على ارباب بيوت كثيرة ممن خانهم الزمان . وقد رأيت فى مأتمه شخصا يبكى بكاء حارا لا يشفق على نفسه فيه فأردت أن أخفف عنه أحزانه بأن مصابه هو مصاب الجميع ، فأجاب هذا الشخص : « لست أبكى على مصابى فيه فقط بل أبكى على مصاب هؤلاء المساكين الذين كنت أوزع عليهم كل شهر مرتباته ! وفى ذلك قلت فى مرثيته :

بكينا على فرد ، وان بكاءنا
على أنفس لله منقطعات

تعهدها فضل الامام وحاطها
باحسانه والدهر غير مؤاتى

***

وقد كان رحمه الله قوى الاخلاق واثقا بنفسه . حدث أن جاءه يوما كتاب تهديد بالقتل من مجهول ، فابتسم ابتسامة الهازىء الذى لا يعبأ بتصرف صغار العقول ثم رماه جانبا . وفى بعض الايام ركبت معه الى منزله بعين شمس ، وبينما نحن فى عربته قلت له مداعبا : « لو اننا

فوجئنا الان بهذا الذى أرسل لك وعيده وتهديده ، فماذا يكون موقف الامام ؟ » فأجاب فورا :

« والله يا حافظ انى لأهنىء نفسى اذا وجدت فى مصر من يقدر أن يقول فى وجهى « أخطأت » فكيف بى اذا وجدت من يريد أن يقتلنى » . ومن كلماته المأثورة التى قالها فى هذا الموضوع عندما كان يحــذره من مفاجأة أعدائه : « الفيلسوف لا يفاجأ »

« ومن نوادره اللطيفة انه كان جالسا مرة على كرسيه يلقى درسه فى تفسير القرآن على جمع كبير فى الرواق العباسى بالازهر . وكان قاسم بك أمين قد أخرج فى تلك الايام كتابه « المرأة الجديدة » فصادف أن دخلت بنت صغيرة الرواق العباسى أثناء القاء الامام درسه ، فهاج بعض الحاضرين وأرادوا طــردها بعنف ، فقـــال لهم الامام : « اتركوها فانها المرأة الجديدة » ! فكانت تورية لطيفة ابتسم لها الحاضرون .. !

***

وعلى ذكر هذا الحديث الذى حدثنى به وقتئذ فى بيته بالجيزة ، أقول انه كان من عادته فى بيته أن يلبس جلبابا أبيض ، ويرتدى فوقه عباءة بنية ، ويجلس كل مساء فى شرفة مطلة على جدول صغير يتهادى بجواره بين الدساكر والمروج . وكان زواره يجلســون حوله فرحين معجبين ، وقد أمسك فى الكثير من الأحيان بعصا غليظة يهزها هزا رفيقا أثناء حديثه ، تارة الى اليمين ، وأخرى الى اليسار ، وقد يضرب بها الارض اذا طرب أو تحمس وطالما كان يتمثل بقول الاسدى :

اذا المرء اولاك الهــوان فأوله
هوانا ، وان كانت قريبا اواصره

ولا تظلم المولى ، ولا تضع العصا
عن الجهل ان طارت اليك بوادره

وذات مساء كنا جالسين حوله ، فدار الحديث حول حالة مصر العامة ، فقال رحمه الله :

« ان الذين ينعمون النظر فى تاريخ الامم الشرقية يعلمون انها لم تصب بما أصيبت به لوهن فى الدفاع عن كرامتها وحريتها ، بل انتابها ما انتابها ، وأنزلها من مراتب العز والمجد ، استحكام الخلاف والانقسام بين أبنائها ، فضعف شأنها ، وصارت لقمة سائغة لكل آكل ، وتأخرت فى حلبة الحضارة عن سواها من الشعوب التى كانت دونها فى المدنية والقوة والثروة » .. !

ثم قال :

« ان حب الوطن يجب أن يتغلب على سائر الشئون عند جميع أبناء الأمة ، ومتى استعين به أمكن التغلب على كثير من مشكلاتنا الحاضرة ، فيحل الوفاق محل الخلاف ، ويسود التفاهم فى جميع الامور ما دام الافراد والجماعات يهدفون الى غاية واحدة وهدف أسمى ، وهو المصلحة العامة ، لا المصالح الذاتية ، والمطامع الفردية .. !!

« ولا يخفى أن حياة الأمم كحياة الافراد تبدأ من الداخل ، وتقوى وتشتد من الداخل ايضا ، فاذا توافرت فيها أسباب القوة ، استطاعت ان تنهض وتحافظ على استقلالها ، وتدافع عن حريتها ، وتكسب مودة الامم ، وتضاعف هيبتها فى النفوس

« وقد يكون الاستقلال غاية للذين لم يتمتعوا به الى أن ينالوه ، ولكنه فى جوهره وسيلة لتوفير اسباب السعادة القومية . ولا تتوافر هذه الاسباب الا اذا انتظمت

شئون البلاد وساد التعاون والحب بين أبناء الشعب » !

ثم انتقل الحديث الى الغنى والفقر ، والكرم والبخل، وكان رحمه الله يشكو البؤس والفقر فى صدر حياته ، ولكنه كان يكره البخل ، ويمتدح السخاء ، فقال : « الاسخياء يعبدهم المال ، والبخلاء يعبدون المال ، والسخاء الحق ابن الاقتصاد ، وأبو الاعمال الوطنية العامة ، فهو الذى بنى المستشفيات ، وأنشأ المدارس ، ونشر العلوم والمعارف ولا يشترط أن يكون السخى غنيا غنى وافرا ، فان أكثر الاسخياء كانوا من المتوسطين او الفقراء الذين اقتصدوا من دخلهم ما أنفقوه فى وجوه الخير والاعمال العامة » ..

ثم ابتسم وقال : « اما انا فلم أقتصد شيئا ، ولم اقتن شيئا ، وانى اقول كما قال ارسطو : « القنية مصدر الخوف والاحزان » . ولذلك قلت :

يقولون مالك لا تقتنى   من المال ذخرا يفيد الغنى
فقلت وافحمتهم فى الجوا   ب لكيلا اخاف ولا احزنا

***

وقد عانى حافظ ابراهيم ما عانى من الفاقة والبؤس بعد عودته من السودان سنة ١٨٩٩ محالا الى الاستيداع من الجيش المصرى لاتهام الانجليز له فى ثورة الضباط المصريين . وهنا أذكر للأدب والتاريخ حادثا وقع بينه وبين زعيم المدرسة الحديثة فى الشعر العربى « محمود سامى البارودى » يدل على ما كان للبارودى من خلق رفيع وتقدير لرابطة الادب التى هى كرابطة الابوة والنسب ، كما قال على بن الجهم لصديقه أبى تمام :

ان يكد مطرف الاخاء فاننا
نغدو ونسرى فى اخاء تالد

او يختلف ماء الوصال فماؤنا
عذب تحدر من غمام واحـد
أو يفترق نسب يؤلف بيننا
أدب أقمنـاه مقـام الوالد

فقد حدث بعد عودة البارودى من منفاه فى جزيرة سيلان أن زاره حافظ ابراهيم بمنزله فى أكتوبر سنة ١٩٠٠ . وكان حافظ فى ذلك الحين شابا شاعرا نابه الذكر يعرف له البارودى قدره . فتقدم حافظ اليـه بقصيدة مديح عدد فيها فضله ، وأشاد بامارته فى دولتى السيف والقلم ، وبدأها بأبيات فى الغزل مطلعها :

تعمدت قتلى فى الهوى وتعمـدا
فما أثمت عينى ولا لحظه اعتدى
كلانا له عذر ، فعذرى شبيبتى
وعذرك انى هجت سيفا مجردا

الى ان ينتقل الى مدح البارودى فيقول :

أمير القوافى ان لى مسـتهامة
بمدح ومن لى فيك أن أبلغ المدى
اعرنى لمدحيـك اليراع الذى به
تخط واقرضنى القريض المسددا
ومر كـل معنى فارس بطاعتى
وكل نفور منـه أن يتـوددا
وهبنى من انوار علمك لمعـة
على ضوئها أسرى واقفو من اهتدى

حتى جاء الى قوله :

اتيت ولى نفس اطلت جدالهـا
سيقضى عليها كربها اليوم او غدا
فان لم تداركها بفضل فقد اتت
تودع مولاها وتسـتقبل الردى

فلما سمع البارودى هـــذين البيتين بكى بكاء حارا وناشد حافظا أن يحذف هذين البيتين من القصيدة . ثم نهض من مجلسه وعاد الى حافظ ، فناوله مظروفا به أربعون جنيها ذهبيا ، هى قيمة ما كان مقررا للبارودى من معاش شهرى ، وقال لحافظ :

« اننى أبكى ، لأنى عشت الى زمن يقدم فيه مثلى الى مثلك هذا المبلغ الضئيل » !! وقد وفى حافظ ابراهيم لرغبة البارودى ، فحذف هذين البيتين من القصيدة ، ولم ينشرهما فى ديوانه ، بل لم ينشرا فى اية صحيفة من الصحف !!

***

وكما كان حافظ يهيب بقومه أن يعنوا بالعلوم والاداب ، ويوحدوا صفوفهم ، أمام أعدائهم ، وينفضوا التخاذل والخمول ، كان يقدر الرياضة وفوائدها لأبناء الأمة ، وما يجنيه الشباب من الالعاب الرياضية ، وقد نظم قصيدة ظريفة فى ذلك أنشدها فى ليلة أحيـــاها نادى الالعاب الرياضية بالجزيرة ليلة السبت الثامن من ابريل ١٩١٦ م ، جاء فيها :

بنادى الجزيرة قف ساعة ... وشاهد بربك ما قد حوى
ترى جنة من جنان الربيـــــع تبدت مع الخلد فى مستوى
جمال الطبيعة فى أفقهـا ... تجلى على عرشه واستوى
فقل للحزين ، وقل للعليـ ... ـل ، وقل للملول هناك الدوا
وقل للأديب ابتدر ساحها ... اذا ما البيان عليك التوى
وقل للمكب على درســه ... اذا أنهك الدرس منه القوى
تنسم صباها تجدد قوا ... ك فارض الجزيرة لاتجتوى
ففيها شفاء لمرضى الهمو ... م ، وملهى كريم لمرضى الهوى
وفيها وفى نيلها ســلوة ... لكل غريب رمتـه النوى

الى آخر هذه القصيدة الرقيقة ، التى تبلغ خمسة وخمسين بيتا .. !

وقد أشرنا فى هذا الكتاب الى بعض ما كان بين شوقى وحافظ من صلات أدبية ، وطرائف اخوانية . ونذكر أن شوقى دعا حافظا الى حفل زواج كريمته امينة هانم بحامد العلايلى فى داره فى يناير ١٩١٣ وصادف أن كان حافظ مريضا فى تلك الليلة ، فاعتذر لشوقى ، وكتب باعتذاره فى أبيات لطيفة جاء فيها :

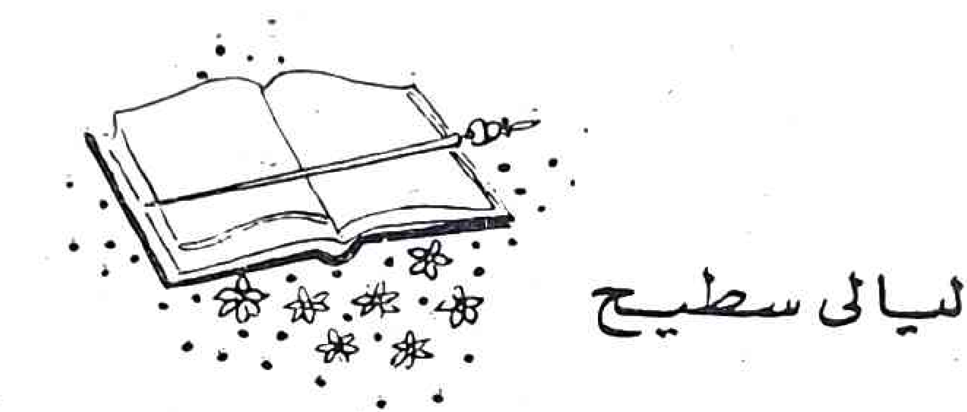
يا سـيدى وامـامى ويا أديب الزمـان
قد عاقنى سوء حظى عن حفـلة المهـرجان
وكنت أول سـاع الى رحاب «ابن هانى»
لكن مرضت لنحسى فى يوم ذاك القـران

***

ثم يقول فى ظرف ومودة :

فاصفح فأنت خليـق بالصفح عن كـل جان
وعش لعرش المعـانى ودم لتـاج البيـان
ان فاتنى ان أوفى بالأمس حق التهـانى
فاقبله منى قضـاء وكن كريم الجنـان
فالله يقبـل منا الـ صلاة بعـد الأوان





ليالى سطيح

اشتد بحافظ اليأس بعد وفاة الامام وعاودته الشكوى من الزمان واهله ، ونظر فلم يجد من قومه مسعفا ففتر عزمه واكتأبت نفسه ، واعتزل فى بيته عاكفا على ايداع شجونه كتابا اخرجه بعد وفاة الامام بعام واحد اى فى سنة ١٩٠٦ وهو « ليالى سطيح » . وقد نحا فيه نحو كتاب « عيسى بن هشام » للمرحوم محمد بك المويلحى وان لم ينهج منهجه . وقد ابتدأ بما ينم عن حزنه ويأسه من الدنيا ، فقال :

« حدث أحد أبناء النيل قال :

« ضاقت عن النفس مساحتها لهم نزل بى . وأمر بلغ منى فخرجت أروح عنها ، وأهون عليها ، فما زلت أسير والنيل ، حتى سال ذهب الاصيل ، فاذا أنا من الاهرام أدنى ظلام ، وقد فتر منى العزم ، وسئمت الحركة ، فجلست أنفس عنى كرب المسير ، واضطجعت وما تنبعث فى جارحة من التعب ، وكنت من نفسى فى وحدة الضيغم ، ومن همومى فى جيش عرمرم ، وجعلت أفكر فى هذا الدهر وأبنائه ، فجرى على لسانى ذلك البيت :

« عوى الذئب فاستأنست للذئب اذ عوى
وصوت انسان فكدت اطير »

ويستمر حافظ فى ذكر ما يجول بخاطره من الهموم والاشجان ، على هذا الاسلوب ولكنه لا يلبث الا قليلا فى التقيد بالسجع ، ثم يفك عقاله ويكتب على سجيته نثرا مرسلا بلا تعمل ولا كلفة . وهو لكى يجعل للكتاب لذة القصة يتخيل أن أحد أبناء النيل اعتزل فى مكان على شاطىء النيل بالقرب من الاهرام . وانه لكذلك اذ هبت عليه ريح كريهة انهزم امامها النسيم ، وانقبض لها صدر الجو ، وتعبس بها وجه النهر ، وتعلقت بأنفاسه فصدعت رأسه وغشت بصره ، ولما انجلت عنه تلك الغاشية أبصر جيفة فوق ماء النيل رمى بها أحد سكان القرى فى هذا النهر العظيم ، فيخاطب النيل آسفا لجهل هذه الأمة التى أصبحت لا تعرف قيمـــته بعدما كان اسلافها يعبدونه ويبالغون فى تقديسه

***

ثم يمسك عن الكلام ويهم بالنهوض ، واذا به يسمع صوت انسان يقول :

« أديب بائس ، وشاعر يائس ، دهمته الكوارث ، ودهته الحوادث ، فلم تجد له عزما . ولم تصب منه حزما ، خرج يروح عن نفسه ، ويخفف من نكسه ، فكشف له عن مكانى ، وقد آن أوانى . اى فلان (يعنى حافظا) لقد اخرجت للناس كتابا (يعنى البؤســاء) ففتحوا عليك من الحروب ابوابا ، وخلا غابك من الأسد ، فتذاءب عليك أهل الحسد ، اى فلان اذا القى عصـاه ذلك المسافر ، وغادر بحر العلم أرض الجزائر فقد بطل السحر والساحر ، فانكفىء الى كسر دارك ، وبالغ فى كتم أسرارك ، واقبل غدا مع الليــل ، وترقب طلوع

سهيل، ومتى سمعت من قبلنا التسبيح ، فقل لصاحبك الذى يليك هلم الى « سطيح »

ثم اذا كان الغد جاء الى المكان فالتقى بصاحبه الذى أخبره به « سطيح » فيتحدثان قليلا فى نقد الحياة المصرية ، حتى يسمعا التسبيح ، فيهرولا نحوه فيخاطب هذا الصاحب بكلام يفهم منه انه « قاسم بك أمين » كما يفهم من الكلام السابق ان أحد أبناء النيل الذى يعنيه المؤلف والذى خاطبه « سطيح » هو الاديب البائس والشاعر اليائس « حافظ ابراهيم » . وتدور الاحاديث بين هؤلاء الثلاثة : حافظ ، وقاسم أمين ، وسطيح ، هذا الشخص الخيالى الذى استعار له حافظ اسم « سطيح بن ربيعة » كاهن بنى ذئب فى الجاهلية .. !!

ذلك الى ما جاء فى هذا الكتاب الطريف الذى أودعه حافظ كثيرا من شجونه ، وآلامه ، ونقده للحياة المصرية نقدا اتخذ منه وسيلة لبلوغ غرضه من استعراض جانب غير يسير من نقد أخلاق المصريين وعاداتهم ولغتهم وآدابهم وسياستهم وغفلتهم عن مصالحهم واهمالهم لحقوقهم مما يثير الهمم ويستفز النفوس الى الاصلاح الاجتماعى والسياسى

واسمعه يقول ناقدا : « ... لقد أفاض الفلاسفة فى تعريف السعادة ، وتفننوا فى تصوير اللذة ولكننى لم أجد فيهم من نفذ فهمه الى حقيقة ذلك التعريف . جهلوا ان السعادة كل السعادة فى شياخة السجادة ، وأن أسعد الناس حالا وأرخاهم بالا ، جالس فوقها يجرى رزقه من تحتها ... وأسعد من هذا الحى ، ميت يسخر له الله من يبنى على قبره قبة عالية ، ثم يدعو الناس الى التبرك بتلك العظام البالية فتجىء سعادته فى مماته على قدر شقائه فى حياته ، وتحسده على تلك

النعمة الأحياء حتى يقول قائلهم :

أحيـــاؤنا لا يرزقون بدرهم
وبألف ألف تـــرزق الأموات
من لى بحظ النائمين بحفرة
قامت على أحجارها الصلوات

« ... وانى لأعرف فى مصر قوما قد احترفوا الوصاية على الايتام ، فهم كلما حدث يتم بالبلد رشحوا أنفسهم لتلك الوصاية ، وعملوا جهدهم للوصول الى هذه الغاية

« قال صاحبه صـــدقت يا أخى ، ولكن أتعرف السعيدة من النساء كما عرفت السعيد من الرجال ؟ قال : السعيدة من النســاء من ســـهلت لها الاقدار فأصبحت تدعى شيخة الزار .. » !!

وقد قرظ هذا الكتاب شيخ الشعراء اسماعيل صبرى بهذين البيتين :

طالب الحكمة خــذها جملة
عن «سطيح» من لدن أفصح لافظ
قطـــع تبهر البـــاب الورى
ضربت فى مصر فى أيام حـــافظ

ويستمر على هذا المنوال فى نقد الحياة الاجتماعيـة والسياسية فى مصر بأسلوب لاذع كطريقته فى شـعره الاجتماعى الذى هو فى الحقيقة صدى لكتاباته وأحاديثه فقد كان رحمه الله كثيرا ما يأسف فى أحاديثه على فساد العادات وضعف الاخلاق ، وكان جريئا فى مجابهة قومه بذلك ، صريحا فى أن يجهر بما جهر به فى عدة قصائد منها قصيدته فى زواج الشيخ على يوسف التى نعى فيها على المصريين بعض العيوب الاجتماعية . وقد بدأها بقوله :

حطمت اليراع فلا تعجبى
وعفت البيـــان فلا تعتبى

ثم يقول :

وكم ذا بمصر من المضحكا
ت كما قال فيها أبو الطيب

امور تمر وعيش يمر
ونحن من اللهو فى ملعب

وشعب يفر من الصالحات
فرار السليم من الاجرب

وصحف تطن طنين الذباب
وأخرى تشن على الأقرب

وهذا يلوذ بقصر الامير
ويدعو الى ظله الارحب

وهذا يلوذ بقصر السفير
ويطنب فى ورده الأعذب

ومثل ذلك قصيدته فى « الامتيازات » وغيرها مما هو منشور فى ديوانه ، ولعل ثورته على الاخلاق والعادات هى أولى الميزات التى ينفرد بها أغلب شعر حافظ . وان كل من يقرأ أو يسمع شعر حافظ فى هذا الباب يحس بأنه كان ــ رحمه الله ــ ضيق النفس يثور ويهتاج كلما رأى امامه ما لا ينسجم مع طبيعته السليمة ومع رغبته فى أن يجد قومه فى الذروة من الاخلاق الفاضلة

نعم انه كان ثائرا على الأخلاق والعادات التى لا تتسق وما ينشده لقومه من الاصلاح والتقدم . ولا غرو فقد صحب امام المصلحين الاستاذ الشيخ محمد عبده ، وكان له من طبيعته السامية حافز الى تنبيه قومه واستنهاض هممهم لاصلاح حالهم ، والدفاع عن لغتهم والذود عن حقوقهم

لهذا نجد الى جانب شعره الاخلاقى طائفة غير يسيرة من الشعر القومى الذى دافع فيه عن اللغة وعن بلاده

وأرسل خلاله عدة صيحات فى وجوه المحتلين ..

وقد امتاز شعر حافظ السياسى بميزة قل ان توجد فى غيره . تلك هى التعريض اللاذع والسخرية البالغة التى يرسلها كما يرسل مادح المديح الى ممدوحه وهى فى الوقت نفسه ذم وانتقاص من أشد أنواع الذم والانتقاص .. اقرأ له قصيدته التى قالها فى مظاهرة السيدات ابان الحركة الوطنية عام ١٩١٩ وقد حاصرها الجيش الانجليزى وفرقها ، ومطلعها :

خرج الغوانى يحتججن ... وكنت ارقب جمعهنه
فاذا بهن تخذن من ... سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب ... يسطعن فى وسط الدجنه

ثم أشار اشارة ساخرة الى الجيش الانجليزى اذ اعترض طريق مظاهرتهن ، فقال :

فليهنأ الجيش الفخور ... بنصره ، وبكسرهنه

وقد طبعت ، ووزعت منها على الجمهور آلاف النسخ ولم تنشر فى الصحف الا عام ١٩٢٩ م ..

او اقرأ له قصيدته فى وداع كرومر التى نقتطف منها هذه الأبيات :

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى
فلا تكذب التاريخ ان كنت منشدا

فقد حان توديع العميد وانه
حقيق بتشييع المحبين والعدا

فودع لنا الطود الذى كان شامخا
وشيع لنا البحر الذى كان مزبدا

وزوده عنا بالكرامة كلها
وان لم يكن بالباقيات مزودا

فلم لا ترى الاهرام يا نيـل ميدا
وفرعون عن واديك مرتحـل غـدا

كأنك لم تجـزع عليـه ولم تكن
ترى فى حمى « فرعون » امنا ولا جدا

اثره فى نهضة عام ١٩١٩

يخطىء الذين يقولون ان « حافظا » ليس له اثر فى النهضة الوطنية عام ١٩١٩ م . وقد رايت بعض أبياته فى قصيدة مظاهرة السيدات ، وفى ديوانه من القصائد القومية والسياسية التى قالها منذ ثلاثين او خمس وعشرين عاما قبل وفاته ما يكفى لانهاض امم الشرق جمعاء لا الأمة المصرية وحدها ..

وماذا يقوله « حافظ » بعدما قاله فى أوائل القرن العشرين مما كان له أثره البارز فى نهضة عام ١٩١٩ . لقد كان من حق نفسه أن يضع قيثارته ليستريح بعدما جهد فى العزف على أوتار الأخلاق والعادات والسياسة والدعوة الى استعادة مجد الغابرين الذى اضاعه بنو الشرق بغفلتهم واهمالهم ، وكان من حق نفسه أيضا ان يخلد الى الوظيفة يتناول منها رزقه فى أمة لا يصلح فيها الأدب موردا للرزق ، وأن يسكن الى تلك الحياة بعدما قضى فى جهاده نحو خمسة عشر عاما كانت بمثابة خمسين عاما لما اخرج فيها من القصائد الاجتماعية والسياسية التى امتاز بها وكانت ابرز ما فى ديوانه اذا استثنينا قصائد الشكوى وهى لا تخرج عن انها قصائد ضمنها كثيرا من نقد الأخلاق والشئون العامة ..

عودته للسياسة :

سكن حافظ ابراهيم الى الوظيفة فى دار الكتب عام ١٩١١ فبقى بها عشرين عاما لم ينظم فيهـا شيئا من القصائد غير المراثى التى كان يشيع بها الكبراء والعظماء ورجال العلم والأدب . وهى باب من الأبواب التى طرقها وأجاد فيها قبل أن يوظف بدار الكتب ، ولكنها كانت تحوى كثيرا من الزفرات الوطنية والسياسية والاجتماعية

ولما أحيل الى المعاش عاوده حبه للشعر السياسى ولاستنهاض الهمم ، وقد اتسمت هذه العودة بحرارة الشاب النابغ الذى كان ينشد الجموع من ثلاثين عاما مضت فيهزها هزا ، وقد وضع قصيدة تربو على مائة وخمسين بيتا نشر منهـا فى الصحف عددا من القطع . وهى تتناول سياسة صدقى باشا أيام وزارته الاولى التى ألفت دستور عام ١٩٢٣ ، كما تناول سياسة الانجليز فى مصر ، ويقول فيها :

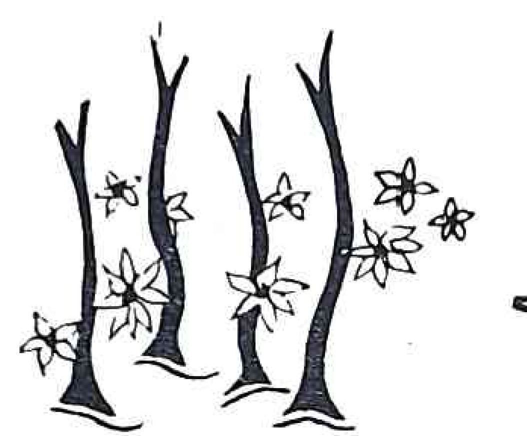
يا آلة للقاسطين ودمية　　فى قبضتيها النقض والابرام

ويقول :

لا هم أحى ضميره ليذوقها　　غصصا وتنسف نفسه الآلام

وقد اشتهر بالقائه لقصائده حتى كان له فى كل حفل المقام الاول من الاعجاب ومن الغريب ان حافظا الذى اشتهر بحسن الالقاء واجادة الانشاد وكان يمارس المحاماة فى الجيش عاد فى أواخر أيامه لايستطيع الخطابة ، ولا يميل اليها لضعف صحته وشيخوخته ، ولم يحاول يوما أن يخطب ثلاثة اسطر نثرا مع انه كان يلقى القصيدة الطويلة من قصائده عن ظهر قلب ، وكان يأبى أن يتصدى للخطابة التى يرى انه قد يكون له فيها المقام الثانى ..

حافظ.. بين دموعه وابتساماته



كان شاعر النيل حافظ ابراهيم خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، رائع النكتة ، لطيف الدعابة ، حاضر البديهة ، سريع « القفشة » . اذا شهدت مجلسه ملك عليك نفسك ، ودفعك فى موجة من ظرفه وانسه بما يرتجله من فكاهاته ، ويرويه من طرائفه ودعاباته ، ويبتدعه من نوادره ومزاحه حتى كان أمير الشعراء احمد شوقى يقول عنه : « انه يضيع كثيرا من قوته النفسية وروحه الشاعرة فى احاديثه وفكاهاته ولو ادخر ذلك لأوقات شعره لكان خيرا له ، وللأدب العربى » ..

ولكن « شوقى » قد فاته ان حافظا لم تكن نفسه الحزينة تستطيع أن تحبس فكاهاته ودعاباته بل سخرياته فى مجالسه ، وبين أصدقائه . فقد كانت هذه الحال اشبه بالانتقام من أيام احزانه ، وأوقات آلامه ، او هى توازن نفسى بين حالين مختلفتين فقد بدات حياة حافظ بالآلام ، وعاش صباه ، وطوى شبابه فى آلام ، وقضى كهولته فى متاعب واشجان . ولم يكن سعيدا فى أطوار حياته أو بعضها كشوقى . ولذلك كان كثير الشكوى ، بل كانت الشكوى من أبرز أشعاره وابلغ اقواله ..!

فقد نشأ يتيما محروما من حنان الأمومة وعطف الابوة كما أوضحنا فى الصفحات السابقة ، وواجه فى صدر حياته جهدا مريرا ..

وقد سعى للرزق وهو شاب يافع ، فالتحق بمكتب محام من المحامين المشهورين فى طنطا يدعى « الاستاذ محمد الشيمى » وعقد عزمه على الاشتغال بالمحاماة ، لكنه ما لبث أن زهدها واختلف مع الاستاذ الشيمى . ففارقه وفارق المحاماة ، وكتب هذين البيتين :

جراب حظى قد أفرغته طمعا
بباب أستاذنا الشيمى ولا عجبا

فعاد لى وهو مملوء ، فقلت له :
مما ؟.. فقال : من الحسرات وا حربا

***

ترك حافظ مكتب الاستاذ الشيمى وهجر المحاماة ، واختار أن يزاول عملا أكرم من أن يستبد فيه فرد ، أو يكون رزقه معلقا بارادة انسان . وكانت مدرسة الحربية وقتئذ تستقبل أمثاله من الشبان الحاصلين على الشهادة الابتدائية ، فوجدها فرصة يخدم فيها بلاده ، على الرغم من انه لا يميل الى فن الحرب وحرفة القتل والقتال — كما قدمنا — فكان من حظه بعد تخرجه من هذه المدرسة أن يطوح به الى السودان تحت سيطرة الانجليز وبلاء الاحتلال والاستعمار ، ففزع من هذا الحظ العاثر ، وعاش فى السودان ثائر النفس حزين القلب ، ناقما من معاملة المستعمرين للضباط المصريين واستبدادهم بهم ، واستعلائهم عليهم فى ذلك القطر ، وكتب من السودان الى صديق له فى مصر ابياتا يصف فيها نفسه ، قال فيها :

وما حملتهـــا الا شـــقاء
تقاضـــينى به يوم الحســاب

جنيت عليــك يا نفسى وقبــلى
عليــك جنى أبى فدعى عتــابى

***

ثم يتوجه الى آدم ونوح ، فيعتب عليهما بعد أن ألقى الجناية على أبيــه الاول « آدم » لأنه خرج من الجنة ، ونزل الى الارض ، وترك بنيه يعبث بهم الشقاء وتستبد بهم المتاعب والآلام .. والثانى « نوح » لأنه حمل جدود العالم الحاضر فى الفلك ، فنزلوا ثانيا الى أرض الاحزان والبلايا ، ولو أصــاب لتركهم للفنــاء فى جوف المــاء فاستراحوا وأراحوا ، كما قال مخاطبا آدم ثم نوح :

سليــل الطين كم نلنــا شــقاء
وكم خطت أناملنــــا ضريحا

وكم أزرت بنــــا الأيام حتى
فدت « بالكبش » اسحاق (١) الذبيحا

وباعت « يوســـفا » بيع الموالى
والقت فى يـــد القوم « المســيحا »

ويا « نوحا » جنيت على البــرايا
ولم تمنحهم الود الصـــــحيحا

علام حملتـــهم فى الفـــلك هـــلا
تركتهـــم ، فكنت لهـــم مريحـــا

---

(١) اسحاق هــو ابن ابراهيم الخليل ، وقد اختلف العلمـاء فى الذبيح من ولدى ابراهيم ، فقبل اسحاق ، وقيل اسماعيل

ثم يبكى حظه فى الحياة ، وتاخره عن رفاقه ، ومحاربة القضاء له ، فيقول :

أصاب رفاقى القدح المعلى
وصادف سهمى القدح المنيحا (١)
فلو ساق القضاء الى نفعا
لقام اخوه معترضا شحيحا

***

وحافظ ابراهيم فى حزنه وآلامه لا يعتب على الحظ فقط ، أو يلقى الذنب على الأيام فحسب ، ولكنه يهاجم الاستعمار الذى هو المصدر الأكبر للبلاء والشقاء فى مصر والسودان والسبب الأعظم فيما حل بالمصريين والسودانيين من تأخر وحرمان وبؤس ومتاعب . فتراه اذا بكى فى شعره او استبكى ، لا يبكى على حظه وحده ، بل يبكى على حظ بلاده ، ويستبكى لحال أمته التى أصيبت بالاستعمار والمستعمرين وما أحدثوا من فساد، وهدموا من مجد ، وأذلوا من نفوس ، وشوهوا من حياة ، وطمسوا من قومية وتاريخ ، واضعفوا من اخلاق ، واغتصبوا من خيرات ، فيقول فى قصيدة من قصائده :

سعيت الى أن كدت انتعل الدما
وعدت وما أدركت الا التندما
لحا الله عهد القاسطين الذى به
تهدم من بنياننا ما تهدما
اذا شئت أن تلقى السعادة بينهم
فلا تك مصريا ولا تك مسلما

---

(١) القدح المعلى بكسر القاف : السهم الرابع . والقدح المنيح : السهم الخاسر فى الميسر

ثم يخاطب حافظ الشاعر حافظا الحزين فى قصيدة اخرى ناعيا حظه وبؤسه فيقول :

ماذا أصبت من الأسفار والنصب ؟
وطيك العمر بين الوخد والخبب ؟
نراك تطلب لا هونا ولا كثبا
ولا نرى لك من مال ولا نشب ..

ولا يلبث بعد هذا العتاب الذى يوجهه الى نفسه ويصف فيه حاله البائسة أن يذكر وطنه ويتمنى هذه الأمنية السعيدة لوادى النيل ، فيقول :

متى أرى النيل لا تحلو موارده
لغير مرتهب لله مرتقب
فقد غدت مصر فى حال اذا ذكرت
جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطب
ايشتكي الفقر غادينا ، ورائحنا
ونحن نمشى على أرض من الذهب ؟

***

ويقرأ حافظ ابراهيم من روايات فيكتور هوجو وغيره بالفرنسية ، فلا يميل الى ترجمة رواية منها الا رواية « البؤساء » ، لأنها تتفق وميله ونفسه الباكية الحزينة. ثم يقرأ فى شعر فيكتورهوجو بيتين عن النفس الحزينة ، فيترجمهما لأنهما يصفان نفسه تمام الوصف . وذلك فى بيتين عربيين يقول فيهما مخاطبا الله عز وجل داعيا اياه أن يمن عليه بتغيير حاله من الشقاء الى الهناء :

خلقت لى نفسا فأرصدتها
للحزن والبلوى ، وهذا الشقاء
فامنن بنفس لم يشبها الأسى
لعلها تعرف طعم الهناء ..

هذه النفس الحزينة ، البالغة الشكوى ، والبليغة فى شكاياتها بما لم يبلغه كثير من الشعراء ، ليست نفسا بطبيعتها ضاحكة هانئة ، ولا هى فى حال سارة ، ولا هى ترسل فكاهاتها ، وتصوغ دعاباتها ، وترتجل مزاحها وسخريتها الباسمة ، لأنها مطمئنة ، فارغة من هموم الحياة ، بل لأن الفكاهة أو الدعابة وسيلة عندها للسرور والنسيان ، وأداة للانتقام من المتاعب والأحزان، وليست غاية فى ذاتها كما عند الفارغين والمترفين ..

والفكاهة ، والأفكوهة هى الأملوحة أو الملحة التى تطرب وتلذ وتمتع. والمفاكهة -كما فى اللغة - الممازحة. وتفكه الرجل اكل الفاكهة ، وتلذذ بها . والفكاهة من أبحاث علم النفس . وهى حالة نفسية لها مظهر انفعالى هو الضحك .. والرجل «الفكه» المزاح يكون عادة طيب القلب ذا سلوك يتميز بالتجارب الحسية والفكرية التى تساعده على ادراك المفارقات فى الاعمال والحركات والاشكال التى تبعث على الضحك ..

والمفارقات اما أن تكون مفارقات منطقية ، أومفارقات عرفية ، أو مفارقات لفظية أو معنوية كالتلاعب بالالفاظ والمعانى ..

والدعابة هى الفكاهة ، وهى المزاح ، وهى الأملوحة والملحة ايضا ، ولكنها تختلف عن الفكاهة بأنها لاتروى ، بل هى بنت المجلس ، من داعب اذا لاعب . فهى مزاح خفيف لا يمتد الى أن يكون نادرة أو نكتة تحكى ، ومنها السخرية الضاحكة التى تبعث على الضحك فى مزاح برىء لا يثير الغضب .. !

وهذه الانواع جاءت فى مزاح حافظ ابراهيم الفكه ، المداعب ، الساخر . فهو على الرغم من نفسه الحزينة

وحاله المظلمة ، ونظرته المتشائمة الى الحياة والناس ؛ كان كما يقول صديقه الشيخ عبد العزيز البشرى .

« حاضر البديهة ، رائع « النكتة » يتعلق فيها بأدق المعانى فى جميع فنون القول ، فلا يحتـــويه مجلس الا رأيته يتنزى تنزيا من ضحك ومن طرب ومن اعجاب ، وهو كذلك شديد الفطنة ، حلو الملاحظة ، لايكاد يعرض لسمعه أو بصره شىء الا وجه اليه رأيا طريفا يصوغه فى « نكتة » عجيبة قد تستقر على سطوح الاشياء . وأحيانا تتغلغل فى الصميم حتى تتكشف الأيام منها لا عن طرفة متطرف ، ولكن عن رأى حكيم ..

« وهو لايتحامى فى تطرفه ولا يتحرج ، فتراه يقتحم عليك بتنـــدره كل مداخلك أنى سنحت له اقتحاما . فيصيب من خلقك ، ومن ثيابك ، ومن أثاث بيتك ، ومن طعامك . على انه فى كل هذا مرضيك ومؤنسك وباسط أسارير وجهك ، ان لم يفرج بالضحك من ثناياك ، فأما اذا كنت رجلا ضيق الفطن ، متزمت النفس ، فلا خير لك فى مجلس حافظ ابراهيم » .. !

ويروى البشرى نكتة من نكاته ونوادره ، فيقول :

« ومن أظرف نوادره ان صـــديقا لحافظ لقيـــه فى الطريق وهو منقبض النفس ، مربد الوجه ، فسأله ما به ؟.. فقـــال له حافظ : « ان المصران الأعور عندى ملتهب » فقال له صاحبه : « وبماذا تشعر ؟ » فأجاب حافظ : « أشعر بوجع شديد هنا » وأشـــار بيده الى جنبه الأيسر . فقال له صاحبه : « ان المصران الأعور انما يكون فى الجنب الأيمن لا الأيسر » . فأجابه حافظ على الفور : « يمكن أكون أنا ياسيدى أعور شمال » ! !

هـذا ما رواه البشرى فى مرآته عن حافظ . ونحن نروى هنا حادثة شـــهدناها فى رمضان فى بيت حافظ ابراهيم حين كان يسكن فى منزل بالجيزة يطل على جدول صفير، فقد دعانا لطعام الافطار مع بعض الاصدقاء وفيهم صديقه الشيخ عبد العزيز البشرى . فصادف أن جئنا بعد مدفع الافطار بقليـل لطول المسافة بين القـاهرة والجيزة ، فوجـدناه والشـيخ البشرى قد شرعا فى الافطار ، فلما رآنا حافظ أراد أن يعتـذر لنا ، فقـال ضاحكا :

ـ أنا لمـا وجـدتكم تأخرتم قلت دول مش جايين ، فجبت « فقى البيت » وقعدنا نأكل ! ..

فثار عليه البشرى .. وضحك جميع الحاضرين !.. وقد روى لنا الاستـاذ عباس محمود العقـاد عن « صالون الآنسة مى » ذلك الصالون الأدبى الذى اشتهر برواده من كبار العلماء والأدباء كل يوم ثلاثاء ..

روى لنا ان حافظ ابراهيم ، وخليل مطران ، كانا فارسى الحلبة فى ذلك الصالون. وقد خلقهما الله سميرين مطبوعين يملكان الندى ، ويؤنسان الجليس ، ولا يمل لهما حديث ..

وقد كان مطران يتجلى فى «الصالون العائلى» بالنادرة الطريفة ، والمثـل الانيق ، والقفشـة الاجتماعية ، والشاهد الظريف .. !

وكان حافظ فى «مجتمع الادباء» وفى النادى «الرجالى» لايبالى أن يرسـل النكتة الحاضرة والجواب السريع ، والقافية التى لا تعذر ولا تعتذر، والهجوم العنيف الذى لايتكلف ، ولا يعنيه أن يرفع التكليف ..

وكان مطران اول من يستهدف باختياره لهذه الحملات

عليه ، وعلى غيره من زميله الذى لايرحم ، ولا تطلب منه الرحمة فى هذا المقام .. !

ويقول العقاد :

سمع مطران ان رئيس الوزراء يومئذ يتوعده بالنفى، فقال فى أبيات :

انا لا أخاف ولا أرجى فرسى مهيأة وسرجى

وسمع حافظ ابيات زميله المتحمس ، فبادره حين قابله قائلا : « فرس ايه ، وسرج ايه يا خليل .. قل وأنت الصادق : كتفى مهيأة ، وخرجى » ! ! ..

(يشير الى خرج الصابون) .. !

***

ويتحدث مطران عن سبب التشويه الذى أصاب انفه ، فيقول انه ولع بالفروسية وركوب الخيل فى صباه فجمح به جواد ، فسقط من سرجه ووقع على أنفه !..

فيدركه حافظ معقبا : « واخوك جورج ما باله ؟ ! اكان على ظهر حمار وراءك ، فجمح به الحمار ؟ ! .. »

وللخليل مع حافظ ابراهيم نوادر كثيرة ، ومداعبات طريفة منها : ان الخليل كان يلجأ فى اغاظة حافظ الى تذكيره بأنه جهم الوجه ، جهم الصوت ، فى حين انه هو نحيف القوام ، لطيف الملامح على الرغم من تشويه أنفه ، وطالما احتدم الجدل بينهما فى أيهما أجمل من الآخر ؟..

فقال خليل مطران لحافظ ذات مرة :

– اذا كنت انا أقبح انسان ، فأنت اجمل قرد .. !

فرد عليه حافظ على الفور :

– برضه .. انت البريمو .. !

وقد تناولت مداعبات حافظ امير الشعراء احمد شوقى ؛ فقد حدث ان الدكتور محمد حسين هيكل كتب

فى « السياسة الاسبوعية » مقالا بعنوان « شوقى ، وحافظ » فغضب شوقى لاقتران اسمه باسم حافظ ، وهو أقل منه مكانة فى عالم الأدب ، وتمثل بقول الشاعر القديم :

ألم تر أن السيف يصغر قدره
اذا قيل ان السيف خير من العصا

وبلغ حافظ غضب شوقى لهذا القران بين اسميهما ، فضحك ، وقال :

ـ ولماذا يغضب شوقى؟.. ألم يسمع الناس يقولون « زفته وميت غمر » ، و« فول وطعميه » ، و « بصل وعسل » ! ! ..

وأراد احمد شوقى أن يغيظه ، فنظم هذا البيت وأرسله اليه على لسان أحد أصدقائه وهو :

وأودعت انسانا وكلبا وديعة
فضيعها الانسان والكلب « حافظ »

فما كان من حافظ الا أن رد على هذه التورية الساخرة بتورية من نوعها فى هذا البيت الذى يقول فيه :

يقولون ان الشوق نار ولوعة ..
فما بال « شوقى » أصبح اليوم باردا !

ومن طرائف حافظ وهو يترجم رواية « البؤساء » لفيكتور هوجو ان لاحظ عليه أحد أصدقائه انه ارتدى بدلة واحدة مدة طويلة لا يغيرها ، فقابله فى ذلك الحين ورأى البدلة تكاد تشكو من لابسها ، فسأله عن سر تشبثه بهذه البدلة ، فأجاب حافظ فى ابتسام :

ـ لأن فيها صفتين من صفات الله وهما : القدم والوحدانية ! ! ..

وكان ضمن زملائه فى دار الكتب المصرية الأديب

المعروف « توفيق اسكاروس » ، ولم يكن على شيء من الجمال ، فجاء الى حافظ ذات يوم ، وقال له :

– هل تعرف فلانة الأديبة الحسناء ؟ ..

فقال حافظ :

– نعم .. ما خبرها ؟ ..

فقال توفيق :

– انهـــا تحبنى .. وقـــد لايمضى زمن طويل حتى تتزوجنى ! ..

فقال حافظ على الفور :

– صحيح ؟ ! .. يمكن تكون غاويه أنتيكه .. !

وطالما كان بينه وبين الدكتور محجوب ثابت مداعبات طريفة ، وكان كلاهما ذات مرة فى ضيافة سعد زغلول فى بيته بقرية « مسجد وصيف » وكان الدكتور محجوب فى ذلك الحين مهموما بأمرين : وزارة يتولاها ، وفتـــاة غنية يتزوجها ، فداعبه حافظ بأبيات يشير فيهـــا الى ذلك ، والى عادة الدكتور محجوب المعروفة فى استعمال « القاف » . ومن هذه الأبيات يقول حافظ :

يرغى ويزبد بالقـــافات تحسبـــها
قصـــف المدافع فى أفق البســـاتين
من كل قـــاف كأن الله صـــورها
من مارج النـــار تصوير الشيـــاطين

ثم يقول فى هذه الأبيات :

يبيت ينســـج أحـــلاما مذهبـــة
تغنى تفاســـيرها عن « ابن سيرين »
طورا وزيرا مشـــاعا فى وزارته ..
يصرف الأمـــر فى كل الـــدواوين
وتارة زوج عطبـــول خـــدلجة
حسنـــــاء تملك آلاف الفـــدادين

يعفى من المهر اكراما للحيته
وما أظلته من دنيا ومن دين

ومما نذكره بمناسبة مداعباته ان صديقه شيخ الشعراء اسماعيل صبرى كان يميل الى مداعبته فى بعض الأحيان . وكان يعرف عن حافظ الكرم على الرغم من فقره ..

***

وحدث بعد انأحيل الى المعاش انطرق بابه شخص، فذهب الخادم اليه فسلمه ظرفا لسيده ، فأخذه حافظ وفضه ، فاذا فيه قصيدة جيدة يطلب فيها ناظمها مساعدته وبره ويستمطرجوده وعطفه، فأعجببالقصيدة واستحيا أن يرد قائلها خائبا وأكبر أن يدعوه ويخجله بمطائه ، وعد حافظ أبيات القصيدة فوجدها عشرا ، فوضع له عشرة جنيهات فى ظرف بعثه مع الخادم الى هذا الطارق .. !

ومضت مدة ، ثم زار حافظ اسماعيل صبرى ، فتذاكرا الشعر معا ، واستطرد الحديث الى أجواد الشعراء والأمراء العرب ، فتذكر حافظ الأبيات العشرة وتبرعه لصاحبها ، وأسفه على انه لم يعرفه الى الآن ، فضحك اسماعيل صبرى ، وقال له : « أنا أعرفك به » فقال حافظ : « هل تعرفه ؟ » قال : « نعم .. وأسمع أبياته ، فانى أحفظها » ثم انشده هذه الأبيات ، فعجب حافظ ، ولكنه عرف انه اسماعيل صبرى أراد أن يمازحه ، فأرسل اليه هذا الرسول . ثم قام اسماعيل صبرى وهو يضحك ، ورد اليه الظرف بما فيه من الجنيهات العشرة .. !

على ان اقرب اصدقاء حافظ الى نفسه ، والى حبه ومفاكهاته ومداعباته هوصديقه العزيزالشيخ عبد العزيز

البشرى الذى عاشره وصاحبه أكثر من خمس وعشرين عاما متوالية ، لا يكاد احدهما يفارق الآخر او يصبر على فراقه طويلا . وكان كلاهما يداعب صاحبه ، ويكيد له .. قال البشرى فى مقال كتبه بعد وفاة حافظ بعنوان « ذكريات » :

« ... كنت لا استطيع صبرا على فراق حافظ ، وكان حافظ لايستطيع صبرا على فراقى ، ولا أستطيب طعاما شهيا الا اذا كانت يده مع يدى ، ولا تطيب له نزهة مفرجة الا اذا كانت رجلى مع رجله ..

« ... ولا اذكر انه ضمنى به مجلس قط سواء أكان فيه من نعرف او من لا نعرف ، أو كان فيه من نعلى أقدارهم ونجل اخطارهم ، أو كان فيه من نتهاون شأنهم ، ولا تضمر أنفسنا الا احتقارهم والزراية عليهم .. لا اذكر انه ضمنى به مجلس قط الا جلا له مداخلى ، وبذل بين يديه أكره مكارهى ، فاذا أعوزته المكاره خلقها خلقا ، وارتجلها من عفو الخاطر ارتجالا ! ..

« ... ولقد يوغل فى الكيد ، ويمعن فى الدعابة ، فيشرك نفسه معى فيما يرمينى به من ألوان التهم ، ولو قد صح أكثرها لأفضت بنا كلينا الى محكمة الجنايات ، والعياذ بالله .. فيقول مثلا : « لما فعلت أنا وفلان .. كذا .. ولما اقترفنا كذا .. وكذا .. وكل هذا ليؤكد على التهمة ، ويوثق الجريمة .. ! »

ثم يقول البشرى :

« ... واذا أردت ان تعرف بالضبط والتدقيق لون الصلة التى كانت بينى وبين حافظ ، فالتمسها فيما كان يصفنى به ، ويردده على الأسماع عنى ، فلان .. ضرر لابد منه ! .. وكان ذلك رايى فيه أيضا ، رحمه الله ، والحقنى به على الايمان ان شاء الله .. »



الحب والقصة في شعر حافظ

لعل شعر حافظ ابراهيم جدير بالبحث فى هذا الموضوع الذى يتناول الحب ، والقصة ، والمسرحية . ومجالها فيما خلف من أبيات وقصائد ملأت نحو ستمائة صفحة من ديوانه .. فان حافظا كان أولى بالحب وغزل الحب لأنه شاعر رقيق ذو عاطفة مرهفة. ولأن أكثر قصائده التى نظمها فى نحو خمسة وأربعين عاما من حياته أقرب الى القصة والمسرح فى موضوعاتها وأسلوبها الروائى ..

ولو انه اتجه اتجاها جديا الى ذلك ، لكان من شعره ثروة روائية باقية ، لأنه تناول مآسى مصر الاجتماعية ، وامانيها القومية ، وسعيها للحرية ، وجهادها فى القضاء على الاحتلال وفوزها بالاستقلال ، ولأنه كان على قدرة بارعة فى دقة الوصف . والقصة والمسرحية تعتمدان على الوصف ، وهما من الأدب الوصفى ، لا الأدب الانشائى

ولكن حافظا كان من طبعه الكسل ، وكان يشكو عدم التشجيع ، بل صادف فى شبابه الكثير من التثبيط والاهمال والاضطهاد ، ومعاكسة المحتلين الانجليز ، فكان يكافحهم بقصائده الوطنية والسياسية ، وبكى

واستبكى لحظه العاثر . ثم شغله رثاء زعماء الوطنية والمجد الوطنى عن أن ينصرف الى ادب القصة والمسرح الذى يحتاج الى الوقت الكافى والنفس الهادئة المطمئنة ، حتى ان رثاءه لهؤلاء الزعماء يكاد يكون نصف ديوانه . وقد قال فى ذلك :

اذا تصفحت ديوانى لتقرأنى
وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

ومن الغريب ان حاله البائسة ونفسه الحزينة قد أثرا على عاطفته وميله الى الحب ، فلم نر له شعرا فى الغزل الا نحو ثلاثين بيتا نصفها مترجم عن الفرنسية ، وهى مقطوعات صغيرة نذكر هنا من انشائه قطعة غزلية بعنوان « رسائل الشوق » :

سور عندى له مكتوبة
ود لو يسرى بها الروح الأمين
اننى لا آمن الرسل ولا
آمن الكتب على ما يحتوين
مستهين بالذى كابدته
وهو لا يدرى بماذا يستهين
انا فى هم ويأس وأسى
حاضر اللوعة موصول الأنين

وقال فى الحب بعنوان « يقين الحب » هذين البيتين :

اذنتك ترتابين فى الشمس والضحى
وفى النور والظلماء والأرض والسما
ولا تسمحى للشك يخطر خطرة
بنفسك يوما اننى لست مغرما

وهما قطعتان فى غاية البرود العاطفى كغيرهما مما انشأه فى الغزل ، وكذلك فى ترجمته من غزل « جاك

روسو » فانه اختار اضعف غزل فى الشعر الفرنسى ، وترجم منه ومثال ذلك ما ترجمه وهو فى عنفوان شبابه عن هذا الفيلسوف الفرنسى سنة ١٩٠٠ . وهما بيتان فى الحب ، جاء فيهما :

يا أيها الحب امتزج بالحشى
فان فى الحب حياة النفوس
واسلل حياة من يمين الردى
أوشك يدعوها ظلام الرموس

ولا ندرى هل استجاب الحب لنداء الشاعرين ام لا ، على ان عهدنا فى الحب انه يميت المحبين ، ويذهب بهم كما ذهب مجنون ليلى الى الرموس

هـــذا اذا استثنينـــا ذلك الغزل الذى بدا به بعض قصائده على طريقة القدماء كقصيدته فى مدح محمـــود سامى البارودى ، وقصيدته فى مدح احد حكام مصر السابقين وهو غزل تقليدى صناعى لا يمت الى العاطفة الصادقة بأية صلة من نوازع الحب والهيام

اما شعر القصة والمسرح فانه على الرغم من هـــذه النفس اليائسة المضطربة ، فقد بدت فى بعض اشعار حافظ وقصائده روح قصصية فذة لو انه عنى بها كما قلنـــا عناية جدية لأنتجت انتاجا بليغا للقصة والرواية التمثيلية ومن ذلك « عمريته الخالدة » التى نظمها سنة ١٩١٨ م عن حياة « عمر بن الخطاب » والقـــاها بمدرج وزارة المعارف بدرب الجماميز فى الثامن من فبراير من ذلك العام ، ومطلعها :

حسب القوافى وحسبى حين القيها
انى الى ساحة الفاروق اهديهـــا
لا هم هب لى بيانا اســـتعين به
على قضـــاء حقوق نام قاضـــيها

فقد جمع فيها أهم احداث هذه الحياة العظيمة لهذا الخليفة العظيم فى شعر قصصى، بديع .. ومن عناوينها : « اسلام عمر » و « عمر وخالد بن الوليد » و « عمر وعمرو بن العاص » و « عمر وولده عبد الله » و « عمر ونصر بن الحجاج » و « عمر ورسول كسرى » و « عمر والشورى » الى آخر ما جاء فى هذه القصة البليغة التى لو انه كان حولها الى حوار لاصبحت من أبلغ المسرحيات .. !

وقد جاء فى خاتمتها :

هذى مناقبه فى عهد دولته
للشاهدين وللأعقاب أهديها
فى كل واحدة منهن نابلة
من الطبائع تغذو نفس واعيها
لعل فى أمة الاسلام نابتة
تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعض ما شادت أوائلها
من الصروح وما عاناه بانيها
وحسبها أن ترى ما كان من «عمر»
حتى ينبه منها عين غافيها

وكذلك قصيدته فى زلزال مسينا سنة ١٩٠٨ فقد نظم فيه ماساة شعرية مؤثرة لو انها صورت فى فيلم سينمائى لكانت من أشد الافلام هولا ، واكثرها تأثيرا . وما بالك بزلزال يطوى مدينة بأهلها وطرقها ومبانيها وسمائها وأرضها بين ثوران البحر ونيران البركان . فاذا بهذه المدينة الايطالية الجميلة ، تصبح كان لم تكن فى ثوان ، بعد ما أصيبت بما اصيبت به من الخسف والفرق والهدم والدمار ، كما قال فى هذه المأساة :

خسفت ، ثم اغرقت ، ثم بادت
قضى الأمر كلـــه فى ثوان
وأتى أمرها فأضـــحت كأن لم
تك بالأمس زينـــة البـــلدان

ولكن هذه الثوانى قد حدث فيها ما لم يحدث فى عدة ايام ، فقـــد محت أماكن مأهولة بالنســـاء والرجال والاطفال ، وجميع المساكن والآثار الفنيـــة الجميلة ، والضواحى الراقصة البديعة المزدانة بمباهج الحيـــاة ، ووقع فيها من آلام الانسان ، وصراخ الاطفال والامهات والآباء ما يذيب النفوس ، ويسيل العبرات :

رب طفل قد ساخ فى باطن الار
ض ينـــادى امى ابى ادركانى
وفتاة هيفاء تشـــوى على الجم
ر تعانى من حـــره ما تعـــانى
وأب ذاهـــل الى النـــار يمشى
مستميتا تمتد منه اليدان
باحثا عن بنـــاته وبنيـــه
مسرع الخطو مستطير الجنـــان

الى آخر هذه القصيدة ، بل هذه المأساة الرائعة . وكذلك حافظ فى قصيدة « ملجأ رعاية الاطفال » التى انشدها سنة ١٩١١ فى حفل اقامته جماعة رعاية الاطفال بالأوبرا فقد نظمها فى أسلوب قصصى ليؤثر على الجماهير ويستدر عطفهم ومساعداتهم لهذه الجمعية الخـــيرية ، وقد قال فى نهايتها :

لم اقف موقفى لأنشـــد شعرا
صب فى قـــالب بديع النظـــام
انمـــا قمت والنفس نشـــوى
من كؤوس الهموم والقلب دامى

ذقت طعم الأسى وكابدت عيشا
دون شربى قذاه شرب الحمام
فلهـذا وقفت استعطف النا
س على البائسين فى كل عام

ولقد كان يميل فى قصائده الوصفية الاخرى الى الاسلوب القصصى ، بل كان ينزع الى القصة حتى فى الترجمة ، وقد ترجم جزءا من « رواية البؤساء » لفيكتور هوجو نثرا ، ثم ترجم فى خمسة وعشرين بيتا موقفا من رواية شكسبير على لسان مكبث يخاطب خنجرا تخيله حينما هم باغتيال ابن عمه « دانكان » الملك ليخلفه فى ملكه . وقد وصف تردده أولا ، ثم تصميمه بعد ذلك على تنفيذ ما أراد . ومن ذلك قوله فى هذه الابيات :

كأنى أرى فى الليل نصلا مجردا
يطير بكلتا صفحتيه شرار
تقلبه للعين كف خفية
ففيه خفوق تارة وقرار
يماثل نصلى فى صفاء فرنده
ويحكيه منه رونق وغرار
أراه فتدنينى اليه شراستى
فينأى وفى نفسى اليه أوار
واهوى بزندى طامعا فى التقاطه
فيدركه عند الدنو نفار

ثم يقول :
على الفتك يا «دنكان» صحت عزيمتى
وان لم يكن بينى وبينك ثار
فان يك حب التاج أعمى بصيرتى
فمالى على هذا القضاء خيار

أعرنى فؤادا منك يا دهر قاسـيا
لو أن قلوب القاسـيات تعـار
ويا حلم قاطعنى ، ويا رشد لا تثب
ويا شر مالى من يديك فــرار
ويا ليـل انزلنى بجـوفك منزلا
يضـل به سرب القطا ويحـار

تلك بعض أبيات حافظ فى ترجمة هذا الموقف الروائى، وبها من التأثير الرائع ما لو ان شكسبير كان حيا لهنأ حافظا على براعته وقدرته فى وصف هذا الموقف الذى وصفه وكأنه كان حاضرا يراه راى العين ، ويشهد ما فيه من تردد ثم غدر وخيانة وجشع !!

المنظومة التمثيلية

وقد وضع حافظ فى شعره السياسى قصة تمثيليـة شعرية عقب ضرب الاسطول الطليانى لمدينة بيروت انتقاما من الاتراك فى عهد نشوب الحرب الطرابلسية التى وقعت بين الايطاليين والاتراك سنة ١٩١٢ م . وقد دار حوار هذه التمثيلية بين أربعة أشخاص هم : جريح من اهل بيروت ، وزوج له اسمها « ليلى » وطبيب ، ورجل عربى . وهى كما وضعها فيما يلى :

الجريح :

(ليـلاى) ما انا حى — يـرجى ولا انا ميت
لم اقض حـق بلادى — وهأنا قـد قضيت (١)
شـفيت نفسى لو انى — لمـا رميت رميت
(بيروت) لو أن خصما — مشى الى مشـيت

(١) قضيت : اى مت

أو داس ارضـك باغ — لدسـته وبغيت
أو حـل فيـك عدو — منـازل ما اتقيت
لكن رماك جبـان — لو بان لى لاشتفيت(١)
(ليلاى) لا تحسبينى — على الحيـاة بكيت
ولا تظنى شـكاتى — من مصرعى ان شكوت
ولا يخيفنـك ذكرى — (بيروت)انى سلوت (٢)
(بيروت) مهد غرامى — فيها وفيك صبوت
جررت ذيل شـبابى — لهوا وفيها جـريت
فيها عرفتك طفـلا — ومن هـواك انتشيت
ومن عيـون رباها — وعذب فيـك ارتويت
فيها (لليلى) كناس(٣) — ولى من العـز بيت
فيها بنى لى مجـدا — أوائـلى وبنيت
(ليلى) سراج حياتى — خبـا فما فيه زيت
قد أطفـأته كرات — ما من لظـاهن فوت
رمى بهن بغـاة — أصبننى فتويت (٤)

ليلى :

لو تفتدى بحيـاتى — من الردى لفـديت
ولو وقـاك وفى — بمهجـة لوقيت
ان عشت أو مت انى — كما نويت نويت (٥)

الجريح :

(ليلاى) عيشى وقرى — اذا الحمـام دعانى
(ليلاى) ساعات عمرى — معـدودة بالثوانى
فكفـكفى من دموع — تفرى (٦) حشاشة ثانى

(١) اشتفى ، أخذ بثأره فشفى نفسه
(٢) لا يخيفنك يا ليلى انى سلوتك حينما اذكر بيروت
(٣) الكناس بيت الظبى الذى يأوى اليه
(٤) توبت بالتاء أى هلكت
(٥) اى جعلت حيـاتى وموتى تبعا لحياتك وموتك
(٦) تفرى اى تقطع ، والحشاشة بقية الروح فى المريض

ومهـــدى لى قبرا على ذرا (لبنـــان)
ثم اكتبى فـــوق لوح لـكل قـــاص ودانى
هنا الذى مات غـدرا هنـــا فتى الفتيـــان
رمته ايدى جنـــاة من جـــيرة النـــيران
قرصان بحـــر تولوا من حومة الميـــدان
لم يخرجوا قيد شبر عن مسبح الحيتـــان
ولم يطيقوا ثبـــاتا فى أوجه الفرســـان
فشمروا لانتقـــام من غافـــل فى أمان
وسودوا وجه (روما) بالكيد للجـــيران
تبا لهم من بغـاث (١) فروا من العقبـــان
لو انهم نازلـــونا فى الشام يوم طعـــان
رأوا طرابلس تبـــدو لهـــم بكل مـــكان
يا ليتنى لم أعاجـــل بالموت قبـــل الاوان
حتى أرى الشرق يسمو رغم اعتـــداء الزمان
ويسترد جـــلالا له ورفعة شـــان
وليعلم الغـــرب أنا كأمة (اليـــابان)
لاترتضى العيش يجرى فى ذلة وهـــوان
اراهم أنـــزلونا منـــازل الحيـــوان
وأخرجونا جميعـــا عن رتبة الانســـان
وســوف تقضى عليهم طبـــائع العمـــران
فيصبح الشرق غربا ويستوى الخافقـــان
لا هم جدد قـــوانا لخدمة الاوطـــان
فنحن فى كل صـــقع نشكو بكل لســـان
يا قوم انجيل «عيسى» وأمة القـــــرآن
لا تقتلوا الدهر حقـدا فالملك للـــديان

---

(١) بغاث طيور يضرب بها المثل فى الضعف ، والعقبان جمع عقاب وهو من الطيور الجوارح

ليلى :

انى أرى من بعيـــــد جمـــاعة مقبلينـــــا
لعل فيهم نصـــيرا لعل فيهم معينـــــا

العـــربى :

هون عليك ، تماســك انى سمعت أنينــــا
أظن هــذا جريحــا يشكو الأسى أو طعينا
بالله ماذا دهــــاه يا هذه خبرينــــا ؟

ليلى :

لقد دهتــــه المنــــايا من غارة الخائنينــــا
صبوا علينــــا الرزايا لم يتقوا الله فينــــا
فخففـــــوا من أذاه ان كنتم فاعلينــــا

العـــربى :

لا تيأسى ، وتجـــلد أراك شهما ركينـــــا
أبشـــــر فانك ناج واصبر مع الصابرينـــا

الطبيب :

أواه انــــــى أراه بالموت أمسى رهينــــا
جراحه بالغـــــات تعمى الطبيب الفطينا
وعن قريب سـيقضى غض الشباب حزينــا

العربى :

اف لقوم جيـــــاع قد أزعجـــوا العالمينا
قراهم أين حلـــوا ضرب يقد المتـــونا
عقوا المروءة هـــدوا مفاخر الاولينـــــا
عاثوا فســـادا وفروا يستعجلون الســـفينا
والبسوا الغرب خزيا فى قرنه العشرينـــــا
والجمـــــوا كل داع واخرجوا المصلحينـــا
فيا (اربة) مهــــلا أين الذى تدعينـــــا

ماذا تريدين منـــا والداء أمسى دفينـــا
أين الحضـــارة انا بعيشـــنا قد رضينا
لم تؤذ فى الدهر جارا ولم نخاتل خدينـــا
(مسرة) (١) الشام انا اخوانكم ما حيينـــا
ثقوا فأنا وثقنـــا بكم وجئنا قطينـــا
انا نرى فيك (عيسى) يدعو الى الخير فينـــا
قربت بين قـــلوب قد أوشكت ان تبينـــا
فأنت فخر النصـــارى وصاحب المسلمينـــا

الجريح :

رأيت يأس طـــبيبى وهمســـه فى فؤادى
لا تنـــدبينى فانى أقضى وتحيـــا بلادى

العـــربى :

استودع الله شـــهما ندبا طويل النجـــاد
اســـتودع الله روحا كانت رجاء البـــلاد
فيا شهيدا رمتـــه غـــدرا كرات الاعادى
نم هانئا مطمئنـــا فلم تنم أحقـــادى
فسوف يرضـــيك ثأر يذيب قلب الجمـــاد

هذه هى التمثيلية الوحيدة التى نظمها حافظ ابراهيم. وهى تصلح أن تكون مسرحية أو فيلما سينمائيا اذا أضيف اليها بعض أحداث الحرب الطرابلسية التى تطوع فيها عدد كبير من العـــرب المصريين وغير المصريين، وتبرعوا بالكثير فيها من الاموال، واظهر فيها العرب بطولة فذة، ودافعوا فيها عن الارض العربيـــة دفاعا مجيدا ..

---

(١) مسرة الشام : هو مطران كبير لطائفة الروم الارثوذكس من اسرة « مسرة » المعروفة ببيروت . وكان يعنى بالجرحى فى هذه الحادثة

فهرس



وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص : ب ٢١

انجلترا :

ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

سنغافوره :

M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Maktab Attijari Asshargi
P.O. Box 2205
SINGAPORE

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Soa Paulo. BRAZIL



هذا الكتاب

هذا أحدث كتاب ألفه الصحفى الاديب الشاعر المعروف الاستاذ طاهر الطناحى - قبيل انتقاله لدار البقاء- وقد يسر له عمله بالصحافة وحبه للأدب - وهو ما يزال فى مقتبل العمر- ان يتردد على كبار الادباء والشعراء، وأن يناقشهم ويجادلهم . ويساهم فىالمعارك التى تثار بينهم على صفحات الجرائد أو المجلات الادبية او الكتب،ملتزما الصدق والامانة العلمية والادبية ، مقدرا مسئولية الكلمةورسالة الاديب فى كل ما يكتب أو ينقد . لذلك أحبه الجميع ، وكانموضع تقديرهم واعزازهم . وكانت له منزلة خاصة عند شوقى وحافظومطران ، مكنته من ((أن يعرف عنهم ما لا يعرفه الكثيرون ، وأن يكشفمن أمرهم ما لم يكشفه الاكثرون))

وقد صدرت له - فى أوائل العامالماضى - دراسة مستفيضة عن خليل مطران . وكان يعتزم أن يصدر كتابينمماثلين عن كل من شوقى وحافظ ، ولكن الظروف لم تساعده ، فألفهذا الكتاب بعنوان ((صور وظلال من حياة شوقى وحافظ)) يضم ذكرياتطريفة ولمحات أدبية جديدة تلقى - كما جاء فى تقديمه للكتاب - أضواءجديدة على حياتهما ، وتعين مؤرخ الادب فى دراسة تراثهما الادبى النفيس